عُشبي.. مُنعشٌ.. حِرّيفٌ

عهود هوساوي

عُشبي..مُنعش حرّيف

مجموعة قصصيّة

Qindeel | قنديل

Herbal .. Refreshing .. Piquant

Ohoud Hosawi

A Collection of Stories

عُشبي.. مُنعشٌ.. حِرّيفٌ

مجموعة قصصية

عهود هوساوي

© 2018 Qindeel printing, publishing & distrubtion

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو، وبأي طريقة، سواء أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير أم بالتسجيل أم خلا ف ذلك، إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة مقدماً.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

موافقة «**المجلس الوطني للإعلام**» في دولة الإمارات العربية المتحدة
رقم: MC-02- 01-9509435 تاريخ 2018/10/15

ISBN: 978 - 9948 - 38 - 083 - 2

قنديل | Qindeel

للطباعة والنشر والتوزيع
Printing, publishing & Distribution

ص.ب: 47417 شارع الشيخ زايد
دبي – دولة الإمارات العربية المتحدة
البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae
الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

© **جميع الحقوق محفوظة للناشر** 2018

الطبعة الأولى: تشرين الثاني / نوفمبر 2018 م – 1440 هـ

المحتويات

إهداء **9**

مارس اليوم الخامس 2017..... 11

1 مارس اليوم الثلاثون 2017..... 19

2 مارس اليوم الثلاثون 2017 27

3 أبريل اليوم السادس 2017 33

4 أبريل اليوم الحادي عشر 2017..... 37

5 أبريل اليوم الحادي عشر 2017..... 41

6 أبريل اليوم الثاني عشر 2017 47

7 أبريل اليوم الثالث عشر 2017..... 53

8 مايو اليوم السابع 2017 57

9 يوليو اليوم التاسع عشر 2017..... 61

10 يوليو اليوم التاسع عشر 2017..... 65

11 يوليو اليوم التاسع عشر 2017..... 69

12 يوليو اليوم التاسع عشر 2017..... 73

13 أكتوبر اليوم الرابع عشر 2017 77

14 أكتوبر اليوم الرابع عشر 2017 81

15 ديسمبر اليوم الثاني عشر 2017 85

16 يناير اليوم الثالث 2018 89

17 يناير اليوم الخامس والعشرون 2018 97

18 مايو اليوم التاسع والعشرون 2018 101

19 (عُشبي.. مُنعشٌ.. حِرّيفٌ)

20 يونيو اليوم التاسع والعشرون 2018..... 105

شكر وعرفان..... 107

إهداء

لمن كان في قلبهِ مثقالُ حبّةٍ من حبّ!

1

مارس اليوم الخامس 2017

مـا إن أمسـكتُ بالصنـدوق الـذي تغفـو فيـه رسـائل كتَبْتُهَـا؛ حتـى أدركـتُ أننـي تماثلـت لشـيءٍ مـن قـوة؛ فالصنـدوق والرسـائل وسـائر الأشـياء التـي تخصّهـا؛ توقـظ الحنيـن إليهـا وإلـى أيـامٍ قـد ولّـت تذكّـر بأنـوار الأعـراس واحتفـالات المولـد النبـوي ورحـلاتٍ عبـر القطـار المحلـي.

كانـت تقـول بـأن الكلمـات التي تسـقط على القلب في لحظة إلهـام، جديـرة بـأن تُكتـب أو تُنطـق. كان صوتهـا جميـلاً، وكذلـك كلماتهـا المنسـابة علـى الـورق، وقـد أضفـى نـور الكتـاب الـذي تحفظـه بأجزائـه الثلاثيـن عـن ظهـر قلـب علـى حديثهـا وكلماتهـا روعـة وبيانـاً.

«أظـن أننـي فـي النعيـم هنـا؛ تتنـاوب الأفـلاك عليّ والخريـف والربيـع، أشـهد معـه الآن بيـاض عمـره وتحـوّل جسـده، تقاسـمت معـه الشـمس والريـاح والأغانـي والعَـرَقَ والقفاطيـن

الملونة، جُلنا بعض أراضي المغرب نبذر الذكريات ونرويها ونحصدها، يُطهرنا ملح البحر، ويلقينا الحمام المغربي في غيابة الحب.

محظوظة أنا في جلباب عمري هذا أكثر من أي وقت؛ القلب ما شاخ، والروح ما زالت فتيةً معه، فالأيام بأكملها برفقته تعْدِلُ يوماً في الجنة، وأنا التي ما ذقت وما عرفت الجنة، لكن الله أرسله جنةً أمتنُّ لخلدها وسلسبيلها ولؤلئها، ولو سألني الله زيادة لرغبت لساناً ذاكراً وقلباً حيّاً شاهداً. مرزوق لي رزق وأنا قد رُزِقتُ صحبته».

تذكرتُ كيف تسلسلت لحظاتنا حتى وصلنا إلى ربيع العمر الذي كان يربت فيه أحدنا على قلب الآخر، وكيف كانت حالمة كبذرة تتوق لأن تلمس أطراف السماء، تذكرت حين كانت تعلم الأطفال الخير وتسقي النبات، وحين كانت تكرر عليّ: «ما زال في العمر متسع يا مرزوق، ما زال في العمر ربيع!».

في يوم ذكرى مولدي الستين كانت هادئة تقبض بيدها على يدي وتبتسم في وجهي، هَمَسَت «شكراً» فَحَلّ صمتٌ مهيب، تراخت يدها التي كانت تشدّ على يدي.. فوعيت بأنها قد رحلت!

حين أغفو؛ يقفز الألم من العمق لسطح قلبي موجعاً

مُجهداً يسرق النوم من عيني؛ فأبكي كطفل، وأفقد الرغبة بالحياة وأنا الذي كنتُ أحبّها من خلالها، تلهمني بطرائق الله وبالحبّ، وتشعل الضوء في أعماقي لكي أرى، حين قرأت رسالتها أبكاني شعورها حِيالي وكلماتها التي كانت نوراً يحييني الله به.

في الشهر الثاني لذكرى موتها التي صادفت يوم جمعة، تكوّمت غصةٌ في حلقي، قرأت الكهف، فانتبهت للورقة المثبتة على السورة (اقرأ طه)؛ تذكرت بأنها كانت قد ثبتتها ذات عسر لم يجعلني أنطق، ولم أقم بإزالتها منذ ذلك الحين.

حارس المقبرة الأربعيني الزاهد كان يطبطب على كتفي متململاً «قم جبر الله قلبك، تعيش وتفرح».

أردّدُ بلا شعور «أعيش وأفرح!!» لتنحدر دمعة ساخرة من عيني.

في القطار أرخيت قدمي وجسدي مُسَلِّماً أراقب اللاشيء العابر من خلال النافذة مرة، والطفلة التي تجلس أمامي وتتفحص وجهي وقدمي مرات. قالت في النهاية «جوربك مُتّسخ»!

هزتها والدتها: أأدب الملكة؟!

حنت رأسها ببراءة فقالت: «آسفة ولكن جوربه متسخ!».

ابتسمت والدتها بحرج، مدّت لي الطفلة ذراعها بكيس بطاطا بابتسامة أبدت أسنانها القصيرة، أخرجت كيساً آخر وقالت «لِمَ لا تقول شكراً؟!».

ضحكت حتى إنني لم أستطع أن أقول لها «شكراً».

امتد الطريق على غير العادة، أخرجت الطفلة كتاباً وجلست على الكرسي الفارغ المجاور لي.

«هل لديك بنت؟» سألتْ.

أجبت: لا.

«ولا أولاد؟».

«ولا أولاد».

«تشبه جدي لكنه سمين، جدي لديه جدتي. ألديك واحدة؟».

«كان معي إيمان.. لكنها غير موجودة الآن».

حدّقت الأم في الطفلة لتسكت حين أدركت أن جوابي قد أوقد شعوراً ما، لكن الطفلة على الرغم من ذلك سألت: أين هي؟

سقط الكتاب من على حجرها فانحنيتُ لأرفعه. قرأتُ عنوانه بصوتٍ عال (الفتى شجرة)، حينها استوت الأم في جلستها مطمئنة.

سألتُ الطفلة «هل نقرؤه معاً؟».

«نعم» ردت بعينين متقدتين بالحياة.

مالت بجذعها ناحيتي وفي يدها كيس البطاطا الفارغ. قرأت لها الخمس صفحات الأولى، أشركتها في نطق بعض الكلمات والأحرف، توقف القطار بعدها وترجلنا منه.

لحقت بي الطفلة التي لم أعرف عمرها أو أسأل عن اسمها؛ لتشكرني وقبّلت يدي.

توجّهت للمنزل، استلقيت على السرير، أشغلتُ الراديو، فأتى صوت وردة مُحملاً بالحياة يخترق حاجز الوقت والمكان، يحمل طيف إيمان ويغني (في يوم وليلة.. في يوم وليلة خدنا حلاوة الحب كله.. في يوم وليلة) نمت بعدها حُرّاً كطير. حلمت بالطفلة تهمس في أذني: «أنا، أنا» فتحتضنني، ظهرت إيمان فجأة من خلف الطفلة فتيةً نضرة قد فرغت لتوّها من جلسة حمام مغربي، ترتدي قفطاناً تبرز منه ورود القرنفل بيضاء شذية، رفَعت الثوب فإذا بنقش حناء يزين ساق قدميها. قالت: (جنان) ثم همست بكلام لم أتبينه جيداً. سألتها أن تعيد ما قالته فابْتَسَمتْ، رجوتها أن تعيد فلوّحت لي بكفّها الأيمن واختفت.

أبقيتُ عينيَّ مغمضتين، ثَبّتُّ جسدي في الفراش لا أتقلب؛

آملاً أن يُستكمل الحلم لأتأملها، ألمسها، أمرر أصابعي على نقش الحناء، أداعب الورود في ثوبها، أقبّلها وأتحسس بشرتها. لكنها كانت مجرد رؤيا تحمل البشرى لا تتكرر ولا تتمدد.

ذهبتُ للمقهى، اخترتُ الشاي، لمحتُ عبد الجبار صديقي القديم الذي لم أره منذ سبع سنوات، منذ أن استقر في فرنسا، تعانقنا بحرارة، تبادلنا الأسئلة وتوجهنا إلى الشاطئ.

تدفق الحديث منا حُراً دون قيد أو أحكام، هو سعيد في فرنساه وفرنسا تحبه، جراح قلب متقاعد، وسيم، يشارك في المعارض الفنية بلوحاته ويحاضر في كليات الفنون، يقدّس صحته، قلبه شاب، ويمتلك مطعماً، ولم يتزوج.

قلت له: «نموت وحيدين إذاً!».

ابتسم «ذقتُ الكفاف من بعد ليلى».

أخبرته عن وفاة إيمان، طبطب على قلبي ببضع كلمات، لطالما كانت أفواه بعضنا شحيحة التعبير في هذه المواقف، لكننا تطرقنا بسخاء عن أحوال الناس ووضع البلاد والشاي في حديثنا. أمرني أن أزوره هناك، تبادلنا الأرقام والعناوين، وغادرنا.

رأيت الطفلة للمرة الثانية في الباص، ما إن رأتني حتى لوّحت لي بكلتا ذراعيها، ابتسَمتُ، توقّف الباص فترجلتُ

أنتظرها في الأسفل. احتضنتني قائلة: «أنا أحبك، لماذا لم أرك مرة أخرى؟».

ابتسمت والدتها وأخبرتني بأن طفلتها كثيراً ما كانت تسألها عني، وبأنها حلمت بي مرتين، أمسكتْ الطفلة بيدي، فانخفضت إليها أقبّل رأسها «هل رأيتني في منامك؟»، أجابت «نعم». اغرورقت عيناي.. واحتضنتها.

في الأريكة بعد منتصف الليل جلست أتفكّر في رحمة الله المتجلية في الفرح والحزن، الشيخوخة والطفولة، الحياة والموت، وكل ما تعاقب عليّ؛ هذه النقائض التي تُبهر روح المرء الذي يظن في كل مرة بأنه قد عرف وخَبَرَ كل شيء في عمره هذا، فيدرك بعد اختباراته تلك بأنه لم يعرف وما عرف!

ما زلت أرى الطفلة بعد ستة أشهر من لقائنا الأول؛ إذ تقوم بزيارتي كل أسبوع ووالدتها تحمل أطباقاً شهية، ترتب منزلي المرتب، أمارس وإياها الرسم واللعب على طريقتها، نتلو القرآن، ونسقي النبات وتغفو أحياناً في حجري. بالمناسبة الطفلة اسمها جنان، وأتمّتِ اليوم سبع سنوات، وعبد الجبار صديقي القديم الذي ما زال مصراً على استضافتي في فرنساه؛ قام بحجز تذكرة لي (مفتوحة) على حسابه الخاص واعداً إياي بالشباب والدهشة.

2

مارس اليوم الثلاثون 2017

«ليس هو فحسب؛ بل قوائم أخرى طويلة تضم عطري وطبقي ووقت القراءة المحدد أو الزراعة والنوم، عطر الياسمين أو التوت البري، روايةٌ لرضوى عاشور قبل النوم نُفِثت عبر روحها، كتبٌ لأحلام مستغانمي وأخرى لم تُمس لإبراهيم الفقي.

صديقة واحدة طوال ست سنين هناك في تونس، هنا في لندن أرضي الصغيرة المحشوة ببذور الطماطم والريحان.

يطنطن دعاء السفر في أذني اليمنى، ونصائح أمي وأخي الأكبر في أذني اليسرى كنصائح الطفولة التي استحكمت حلقاتها عليّ، سيما بعد وفاة أبي، فكان أن تجاوزت أرضي حدود العالم الرحب، وبتُّ أخاف النَّاس والتجارب وأقلق كثيراً، وأحتفظ به.

اختارت مجموعة من الجامعة يوم الأربعاء زيارة الهايد

بـارك، تـرددت بشـأن الذهـاب فـلا علاقـات عميقـة تربطنـي بالآخريـن، وفـي المقابـل كانـت تُلـحُّ عليّ الرغبـة فـي الذهـاب؛ فالمجموعـة تهتـم بالصحـة والطبيعـة مثلي. هاتفـت أمـي لأطمئن عليهـا، ولـم تنس كالعـادة قائمـة النصائـح، شـربت شـاياً، ارتديت ملابـس مريحـة، وتوجهـت للهايـد بـارك.

استحوذ الأخضـر في العشـب والشـجر علـى قلبي مسـبغاً عليه الشـعور بالطمأنينـة، بينمـا اسـتغرقتني رؤيـة البـط طافيـاً يهدهـد سـطح البحيـرة، ويلتقـط الخبـز، ويخلـق ببياضـه فـي المـكان بقعـاً متحركـة يراهـا الزائـر مـن علـى بعـد فتحثّـه علـى القـدوم، كانـت هنـاك النوافيـر بالتماثيـل التـي تعلوهـا أشـبه بروايـات كلاسـيكية أو مسـرحيات غنائيـة، بينمـا كان النـاس يهرولـون أو يمشـون، ينزهـون الـكلاب أو يركبـون الدراجـات، كان هنـاك الأطفـال والكبـار والمسـنون، فـرادى وجماعـات، علـى اختلافهـم إلا أن ثمـة مـا يجمعهـم ويجعلهـم متشـابهين، لا أعـرف مـا هـو! لكنـه بـدا واضحـاً فـي أعينهـم وأصواتهـم حيـن كانـوا يتحدثـون ويضحكـون أو يتأملـون الأشـياء، وأنـا مـن إعجابي بمـا أراه كنـت أحـدّق فيهـم وفـي أي شـيء ببلاهـة ودهشـة.

اسـتقرّ بنـا المقـام فـي مـكان مـا، تهيأنـا وجلسـنا علـى الأرض، كانـت عـن يمينـي (جيـن) وعـن يسـاري (ياسـمين)، عَـرّفَ كل واحـدٍ مـن الأعضـاء الثمانيـة عـن نفسـه موضحـاً سـبب انضمامـه للمجموعـة، ارتبكـت حيـن حـان دوري فـي نهايـة الأمـر.

«أنا بهجة من تونس، أنا هنا معكم لأنني أحب الطبيعة، وأهتم بما يخصها».

كررت (جين) الشقراء اسمي ثم سألتْ: «ما الذي يعنيه؟».

قلت بجذل: «السعادة أو الفرح».

هتفت: «واو!».

ولطالما تساءلت عن معنى الأسماء عند الغرب وعن دواعي تسميتهم أو أبنائهم، فكان أن تشجعت لأسألها عن ذلك، فأجابتني بأن بعض الأسماء لديهم بلا معنى، وبعضها بمعنى، وأن اختيار الاسم يعتمد على الإعجاب بالاسم أحياناً، وأخرى على معنى الاسم.

أعقب (جون) مؤسس المجموعة بالترحيب مرة أخرى، مشيراً إلى ما سنتحدث عنه (تعميق الاتصال بالأرض). ناولتني ياسمين من الهند بسكويتاً بالزنجبيل أعدته بنفسها، قضمت قضمة، فسرى في لساني طعم الزنجبيل لاذعاً حاراً أصيلاً ذكّرني بتونس.

تحدث (إيريك) عن متعة التواصل مع الأرض والانغماس في أوراقها وأشجارها وعشبها وشمسها، تبادلنا النقاش والتجارب، أخذتنا بعد ذلك (سمر) في تأمل لطيف لإرسال الحب للأرض واستقباله منها، كانت هذه المرة الأولى التي

أُجْرِي فيها تأملاً، لم يكن الأمر معقداً كما كنت أظن، بل ممتعاً حرّاً؛ ذلك أنك تتيح لنفسك أن تتخيل وتتنفس وتستقبل وترسل.

مشينا بعد ذلك سَوِيّاً، دخلنا في فسحة الحَمَام، نثرت له مما في يدي من فتات، وصرت أتأمله فيما كان يلتقطه ويتكوم حوله كشأن البط في البحيرة التي كان يتنقل بخفة فيها. كان (إيريك) يذكرنا في كل مرة بالاتصال بين ما نراه، ويتركنا لاستنتاجاتنا وشعورنا وتنفّسنا العميق.

مشينا لمسافات ممتدة بصمت وفضول، عن اليمين مجموعة تجري اليوغا، وأخرى أمامنا متعدّدة الجنسيات تتبع مرشداً سياحياً أسمر. توقّفنا عند عيسى الذي كان يقف فوق كرسي صغير ليرى الجمهور المحتشد حوله في ركن المتحدثين والمخصص لمناقشة مواضيع مختلفة، كان يتحدث بأسلوب رتيب عن الإسلام تارةً وأخرى بالصراخ. أحد الحاضرين قال معلقاً لآخر: «هذا الخطاب يعبر فحسب عمّا اختلج في نفسه». علَت نبرة عيسى حين تطرق إلى نعيم الجنة وتفاعلت معه كلتا يديه، لكن الجمهور بدأ ينسحب شيئاً فشيئاً، ولم يتبقَّ إلا أشخاص قلائل. تجاوزناه وصولاً إلى نافورة حالمة تجسّدُ تماثيلها البرونزية مشهداً؛ زوج وأطفال في لحظة رقص بحالات شعورية حية، وانفعالات تكاد تستحيل إلى حركات.

هزتني سوزي: «يبدو أنك وقعتِ في حبه».

شهقت: «المشهد آسر!».

أغرتنا ياسمين لأن نجرب ركوب الدراجة، ثاني تجربة لي بعد تسعة عشر عاماً من تجربة الطفولة المرتبكة التي سقطت فيها مرتين ولم أكمل التعلم، لكن ركوبها في هذه اللحظة أشعرني ـكما الأطفالـ بالغبطة، كانت الدراجة التي اخترتها آمنة مزودة بعجلتين خلفيتين لموازنتها ـكدراجات الأطفالـ. انطلقت بها في المسار المخصص، تُحيي الحرية وجهي وترحّب بي، ضحكت كما لم أضحك من قبل، دمعت عيناي فبكيت عند رؤية الزهور والشجر المقلوب رأساً على عقب والكراسي والنوافير؛ إذ انتبهت لضحالة تجاربي، ولعينيَّ المعصوبتين ولخطواتي الخائفة.

في تونس لم أخض تجارب تُذكر؛ فأمي تخشى الناس وعلينا منهم، تخاف البيئة المحيطة، وتعزو ذلك إلى الموت الذي باغت أبي الذي لم ألتقه برصاصة مخصوصة لقلبه، أودت بحياته وأودت بأمانها واطمئنانها. ورثتُ شيئاً من خوفها الذي تسلل إليّ عبر الحبل السري، لكنه لم يطفئ شعلة رغبتي بالدراسة في لندن، برغم أنه تسلل إلى حقيبتي وجواز سفري مرافقاً إياي.

أتممتُ عاماً هنا، لكنني لم أشعر بالفارق؛ كوني لم أفسح

المجال للآخرين، ولا لنفسي بالاكتشاف والاستمتاع، لكن في الهايد بارك فعلت العكس، ووجدت أن زهور حواسي الخمس قد تفتّحت وأخرى غيرها؛ ما جعل الدم يتدفّق في عروقي وخطوتي.

وقفتُ أمام المرآة وأدرتُ حواراً مع نفسي، تأملتُ شعري، وملامحي وابتسامتي التي اتسعت حالما تذكرت أنني محاطة برفيقتين سعيدتين، وأنتسب إلى مجموعة تطوعية من نحو الشهر، وأحب النباتات وأهتم بها.

ارتديت كنزةً طويلة، وتوجهت إلى الصالون في الشارع المقابل، جلست على الكرسي، سألَتْني عن قصة الشعر التي أريد، فأجبتها «التي تشبهني».

ابتسمت: «عفواً!».

قلت: «التي تشبهني في هذه اللحظة».

«معبرتان وحيويتان» قالت تصف عينيَّ، ثم تأملت وجهي وشعري، فاستلمت المقصّ بيدها اليمنى بعد أن بلَلّتْ شعري، وشرعت في القصّ.

تسلّيني زقزقة العصافير عند نافذتي، كل صباح أضع لها وعاءً مملوءاً بالماء، وحَباً مخصّصاً لها، فتمرّ وتلتقط الحبّ وتشرب من الماء، فتلهمني العطاء والحُبّ، ذكرني ذلك

بإبراهيم الفواز حين قال «حين تعطي الطيور والجمادات لا يضطرك ذلك إلى انتظار مقابل؛ شعور أو شكر أو ابتسامة. ربما تعطي عامل نظافة نقوداً فيستلمها منك عابساً، لكن مبادلة العطاء مع الحيوان والجماد تُعوّدك على ألا تنتظر بإشفاق المقابل، حتى وإن كان عطاؤك تلوين جدار ما على سبيل المثال».

أمي غاضبة بعض الشيء بسبب شعري، ولأنني اخترت أن أعيش فترتي الدراسية هنا في لندن بهدوء، أكتشف وأتشارك مع الذين يلهمون شجاعتي، يشبهونني أو يختلفون عني؛ بتُّ أقدّر أمي وأحبها لعلمي بأن ما تفعله هو أقصى ما تستطيعه وتظنّه الصواب، ولا بأس بذلك، تعيش الحياة كما اختارت؛ الأمر الذي يلهمني أن أختار أيضاً خط حياتي، وأنتقي بحريةٍ الألوان.

3

مارس اليوم الثلاثون 2017

ليس بالألم وحده نُبْعَثُ للميلاد!

سالم ذو الأسبوع ويوم بحداثة فطرته بالحياة، وديعٌ تحتويه الأرض، شهيٌّ يغري بالقُبل، طريٌّ يذيب الجفاف؛ لفتني لميلادٍ يتأهب للحياة بداخلي بينما كنت أراقبه وأمه كذلك التي كانت تمارس طقوسها الخاصة بها على غرار النسوة اللاتي عرفتهن؛ إذ كانت تنتقي حركاتها وأطباقها بعناية، وتتذوق الطعام تذوقاً. لم تمكث في السرير طويلاً، إذ كانت تستغل وجودها عندنا فتُوكِل إليّ بالصغير، وتغيب في حجرتي تُمارس يوغاها وتأملها الذي قالت عنه بأنه ساعدها لتحتوي ياسمين! كان يدهشني خروجها عن ملة العادات ويخيفني أحياناً، يعيدني إلى التفكر والتساؤل، وأنا التي ما اعتدت التفكر. لم أنسَ جوابها حين سؤالي إياها: «لماذا الألم حين الحمل والولادة؟».

«الألـم هـو لغـة النفـس التـي تـودّ أن تشـفى مـن النهايـة القديمـة، أو تخـوض بدايـة جديـدة، أو تخبـرك بـأوان الوقـت للتغييـر. ليـس بالضـرورة أن يكـون موجعـاً؛ ربمـا يكـون منعشـاً، وليـس بالضـرورة أن يكـون هنـاك ألـم!

التجـارب الروحيـة لا تحمـل ألمـاً فـي بعـض الأحيـان، والحمـل يـا حبيبتـي تجربـة روحيـة».

حيـن سـألتها إيضاحـاً أجابتنـي: «نقتـرب كثيـراً يـا نـور مـن الـروح حيـن الحمـل والأمومـة، تدهشـك تلـك الـروح التـي تسـكنك، تكبـر وتتشـكل فيـك وتتغـذى منـك، تشـعرين بالقـوة والضعـف والحُـب وبالشـجاعة والرحمـة. تشـعرين بمـدد اللـه وإحاطتـه، تدركيـن سـراً مـن أسـرار الخَلْـق، تكبريـن وتصغريـن فـي الوقـت ذاتـه، يصبـح الحـب حاسـتك الأولـى، وتصبحيـن أكثـر حساسـية».

«أنـتِ فـي هـذه التجربـة لا تتلاشـين بقـدر مـا تتوحديـن مـع جنينـك، يكـون الحبـل السـري الرابـط أو اللغـة بينكمـا. كل مـا فـي جسـدك يتهيـأ ويتغيـر ليشـارك فـي تجربـة الحمـل؛ تتعاقـب الهرمونـات، يتحـول اللـون أحيانـاً، أو يكبـر عضـو مـا كالأنـف مثـلاً. تتغيـر الحامـل فـي كل مرحلـة، وتتحـول أطوارهـا كالجنيـن فـي رحمهـا، ولا تخلـو تلـك التسـع مـن الوهـن بحسـب كل أنثـى، وكل أنثـى تختلـف حالتهـا ومرحلتهـا أثنـاء الحمـل وعنـد وبعـد الـولادة».

«في الولادة يا تُقى تختبرين الحياة والموت، ويذهلك البعث من كليهما، تفقدين الرغبة في التحكم بكل شيء، تتذكّرين بأنك بوابة للأشياء والمشاعر؛ يعبر منك الحب والأمومة والمخاوف، تلتفتين إلى الأحبة حولك، لحبهم وولائهم وإلى دورهم في حياتك، الولادة هي ذكرى أحياناً أو نتيجة تجربة التقت فيها الأجساد بروحانية».

أعادني كلامها إلى حين كانت الجدات والأمهات يحتفظن بالنطاف في أرحامهن لمراتٍ متتالية كصناديق الودائع، ولا أعرف هل كن يشعرن بالروحانية التي تحدثتْ عنها شقيقتي؟ أم أنهن اعتدن الأمر كاعتياد السرير والعلاقة والأطفال؟! يلدن في لحظة يوم لا يتذكر أحداثه إلا هن بسهولة أو بعناء، وفي اليوم الذي يليه بعد أن يطمئن حليب صدورهن وتنام أعين صغارهن؛ يعدن لممارسة المهام المعتادة، تتدلى بطونهن بأطلالها الخاوية ويغمر الإيمان قلوبهن.

بتُّ أحبّ وجودها والجلوس معها وإن لم تتحدث؛ فقد كانت مراقبتها تجيب عن غالب الأسئلة وتولد المزيد منها. أمي في المقابل لم يكن يعجبها حسنى ياسمين فكانت تصر عليها بالزيادة من الطعام والشراب والمكوث في السرير، لكن ياسمين ظلت على مسارها إلى أن غادرتنا لبيتها بعد ثلاثة أسابيع.

في المفكرة الجديدة خاصتي؛ كَتبتُ ثلاث نوايا؛ في

الجزء الأخضر حُب، والأبيض تشافٍ، وفي الأصفر جمال؛ فقد اخترت أن يكون رمضاني القادم ليس كأيّ رمضان تحتفي سجلاته بمرات ختم المصحف وموائده بأصناف الطعام الفائض ومواعيده بالزيارات والجدال؛ بل جديداً مختلفاً.

كان القرآن يتسلل عبر منافذ قلبي حكمة وجمالاً حتى إنني في بعض الأيام لم أكن لأتجاوز الصفحة من فرط الجمال واللذة، كنت أمارس المشي وأضحك، وأستمع إلى الموسيقى، وأجالس الشمس والغيوم وجدّتي.

جدّتي لا تتحدث إلا قليلاً، وحين تفعل فبحكمة ولسانٍ طيب، وحين تبتسم تبتسم كذلك الخطوط الأفقية عند زاوية عينيها الخارجية. تحبّ أن تهدهد سلمى الحفيدة الأصغر في العائلة حتى تُودِعَها للنوم، وتحبّ الأطفال ويحبونها؛ فالمتشابهات تتجاذب.

قلت لها: «أنتِ مختلفة هذه الأيام، كأنكِ تصغرين».

ابتسمت، ويا لابتسامتها السخية التي تكرم القلب بالبشائر والسلام: «متوكلة على الله يا بنتي»!

الله أكبر

الله أكبر

الله أكبر

احتفاءً بعيدٍ أكبر؛ عيدٍ أُعيد فيه الشكر ومعايشة الفرح، أُعِدُّ فيه نفسي والبيت للعيد، رتبت الهدايا، وأشعلت البخور والقهوة، ثم هاتفت ياسمين التي كانت تبدو من خلفها سماء إيرلندا الممطرة تتحين صباح العيد الذي يلينا بعشر ساعات.

ياسمين تقول بأن روحها تَهْوِي إلى الروح في كل شيء؛ ما يجعلها لا تشعر بالغربة، لكنها تشتاق لنا وللتمر ولخبز تعجنه أمي، كما يذهلها سالم بنموّه المتسارع وكأنه يحاول أن يتدارك أمراً ما كألوان البشر وصراعهم الأزلي، أو الحياة حين تبدي وجهها الآخر كاشفةً عن أنياب العنف والشر والبؤس!

4

أبريل اليوم السادس 2017

كان يلتقط التفاصيل بانتباه، تقوم كاميرته بتجميد اللحظة والوقت واللون والمكان، يترقب فتتشكل صورة. يتنقل بعفوية بين الأزقة، فتحييه لوحات الدكاكين وتُفتَحُ النوافذ والأبواب، فيسافر إلى داخل المنزل بخوائه وأطلاله. يرتدي قميصه الأصفر وقبعته المشابهة لتلك التي يعتمرها الفلاحون حين قطف الشاي وجمع الأرز، ويتبادل الحديث مع رفاقه المصورين..

«وكأن أمامي الآن صِبيةً، بسحنة حنطية، وثياب مغبرة، يصرخون ويركضون خلف الكرة في المساحة الفسيحة. تُفْتَحُ نافذة فتطل منها امرأةٌ تصفّق بيديها، يرفع أحد الصبية رأسه بطريقة آلية ويصعد إليها».

«أما أنا فأرى رجلاً يقف أمام دكانه يلفّ حول خصره فوطة زرقاء يحمل سطلاً فيه ماء، يقوم برش بعضه أمام الدكان ليلطف من حرارة المكان».

«أنا أرى امرأةً تصرخ، تستنجد بالقابلة، توشك أن تموت».

جلس سامر على إحدى ركبتيه أمام دكان متخذاً زاوية معينة، ثم ثبت الكاميرا أمام عينه ليلتقط صورة.

سأل: «ما قيمة التقاط ذكرياتٍ كهذه؟! ما الذي ستضيفه للرائي؟! فكما ترى لم يعد للمكان قيمة ما إلا التراثية؟!».

ابتسمت..

قال: «أنا أتساءل فحسب بصوتٍ عالٍ، أدرك أن الصورة تحمل جواباً للمصور، لكن ألا ترى بأن بعض الصور تحمل أجوبةً لا منطقية؟!».

أجبته: «لذلك نتخلى هنا عن المنطق، مفسحين الدرب للروح».

كان عمر يقف أمام بيتٍ بطابقٍ واحدٍ، رأيته يكفّ عن التقاط الصور ويمسح عينيه مأخوذاً بالمكان، اقتربت منه..

«لقد كان هذا البيت ملكاً لجدي».

بكى واحتضنني..

عمر كان الشاب الوحيد لأبوين توفيا في حادث سير قبل ثلاثة أعوام، ولا أقارب له؛ فقد كانت والدته وحيدة، بينما لا يعرف شيئاً عن أقارب والده.

كان شعوره مشابهاً تماماً لشعور البيوت في تلك اللحظة؛ الخواء والوحدة، والرغبة لأن يطل عليها أصحابها، يغذون حنينها بالذكريات، ويروون جفافها بالضحك..

دلف البيت فسرَتْ في جسده قشعريرة، وظل يتحسّس الجدران والأبواب، ويتنفّس من هواء المكان، وكأن خواء المكان سيملؤه ويربّت على فقده..

أرسلت له على الهاتف عنوان قريبٍ له؛ فقد ساعدني جدي الذي كانت ذاكرته على صلة بأهل الحارة القدامى، أرشدني إلى آخر، والآخر إلى آخرين، حتى اهتديت إلى خال أبيه.

استقبله والاشتياق يفيض من عينيه، كما استقبله جدّه وعمة له بذات الشعور..

كان والده قد اختار حرية إتمام الدراسة في بريطانيا والاستقرار هناك؛ الأمر الذي أدى لغضب جدّه عليه وانقطاع الصلة.

قلت لسامر: «لن تكفّ الأماكن عن مناداتك يوماً؛ ذلك أنها تحمل إليك الإجابات؛ وذلك من أجوبة الصور اللامنطقية!».

5

أبريل اليوم الحادي عشر 2017

رسالةٌ أتتني منه بعد لقائي به، وكنت حين رسائله أُعِدُّ نفسي والوقت والهدوء؛ إذ ينتقل بي في رحلاتٍ سلامية بكلماته وصوته وعاطفته؛ صديقي أحمد.

«آه لو تدري يا ياسين عن النور الذي تأنسه في قلبك المقدس هادياً مُجْلِياً بصيرتك، حين تعتكف في المحراب بعيداً عن كل شيء ولو لخطفةٍ يسيرة. كنتُ هذه المرة، أو لِأَقُلْ، كان قلبي المقدس معتكفاً في محراب أمي الراقدة في سرير الوهن، يشهدُ الرحمة حين كانت تتنزل عليها في ساعات الحرج والفرج، يصلّي ويبتهل ويجفّف عرقه حين كان يتأمل ذلك الوهن قائظاً يلسع جسد أمي وأخرياتٍ، يجعلهن يتأوّهن فيرددن كلمات علّها تسبغ برداً على أجسادهن، كن يلهمنني يا ياسين بغزارة؛ حتى نبتت ثلاث قصائد ومعزوفة، ووجدت نبأ.. وما أدراك من نبأ!

دعني أخبرك أن لقاءنا لم يكن خاطفاً، ولا من بداية نظرة، لكنه كان مرتباً ضمن خطة إلهية أزلية، التقينا وشعرت بأن روحها قد التقت بي من قبل، بيد أني وإياها لم نشعر إلا بالإيمان».

تذكرت حينها قصص أبي التي كان يقصها عليّ ما قبل النوم، ويتلذذ في نطقها، وكيف كانت تلك القصص تُغضِبُ أمي!

توقفتُ هنا لأعدّ قهوة علّها تُذهبُ البرودة التي مَسّتْ قلبي لثلاث ثوان، توضّأت وتوجّهت للشرفة أحمل فنجاني، قادتني خطواتي إلى الكرسي الغائم في الزاوية، عبت من النسيم الطائف في الهواء، شعرت بأن المشاعر التي غمرتني في ذلك الجزء من السحر بحاجة إلى أن تفيض فتغمر المستغفرين والساجدين والراقدين والمقيمين الصلاة الحميمة التي يشاركون فيها الجسد والروح بعضهم بعضاً.

كنت كذلك بحاجة إلى مدد لطيف لأستوعب ما هطل على أرضي، وأستوعب أحمد! أمسكت بهاتفي لأكمل، كان الهاتف فارغاً إلا من رسالة، كفراغي الحالي إلا من دفقة ملأت روحي.

أعادتني الرسالة لما قاله لي حين التقيته اليوم: «لديك موعدٌ في الغد بعد المغرب، تأنّقْ بأجمل ثيابك لترافقني». «يُقال بأنني سأتقدّم للخطبة». حين بدرت دهشة؛ ضحك وقال لي: «نعم خطبة».

لـم أكـن لأصـدق هـذا الـ»أحمـد» الـذي يحمـل فـي حقيبتـه كتابـاً قادمـاً ويجـوب المـدن لإقامـة أمسـياتٍ شـعرية، والالتقـاء بمـن يشـبهونه ويختلفـون عنـه. لـم ألحـظ عليـه أي تغييـر، ربمـا لأننـا لـم نلتـقِ منـذ شـهرين بسـبب تنقلاتـه هنـا وهنـاك... اممـم هـل فـي تلـك...؟! هـل تكفـي لبنـاء علاقـة؟ هـل...؟!

كان عقلـي يَـدُرُّ أسـئلة بيضـاً، فتذكـرت قولـه «دعنـي أخبـرك أن لقاءنـا لـم يكـن خاطفـاً ولا مـن بدايـة نظـرة، لكنـه كان مرتبـاً ضمـن خطـة إلهيـة أزليـة» عـدتُ إلـى هاتفـي الـذي أومـض للتـوّ.

«ليـس الحُـب يـا ياسـين شـعوراً؛ بـل كينونـة. وهـذا مـا أدركتـه فـي رحابهـا، أعلـم بـأن الأسـئلة تركـض فـي رأسـك فتجعلـك تتجـاوز قلبـك، لكـن بعـض الأسـئلة لا تتطلـب عقـلاً؛ لأن روحـك تجيبـك، لـك قلـب.. إذاً سـيتذكر وسـيتلقى سـمعك، لكنـي أجيبـك بواحـدة تجيبـك عـن الـكل؛ كل مـا حـدث حـدَث بعـون الجامـع الـودود الوهـاب».

تمنيـت لـو كانـت أمـي التـي تخشـى أن تفسـد قصـص أبـي ذكورتـي ورجولتـي المسـتقبلية؛ حيـة. فتفخـر بـي وبأحمـد! غيـر أنهـا ـ رحمهـا اللـه ـ مـا كانـت إلا لتحوقـل وتولـول خيبـةً علـى الرجـل فـيّ الـذي طمسـته حكايـات أبـي نصيـر النسـاء.

كانـت أمـي كشـجرة صلبـة لـم تقتلعهـا يومـاً ريـحٌ عاصـفٌ، بيـد أنهـا كانـت تملـك مـن القـوة والبـأس؛ بينمـا كان أبـي كأرضٍ

خصبةٍ تتسع لها وتحتوي أصفرها ويابسها برحابة صدر، وكأن شموخها كان وتداً له لئلا يميد، ورحابته وطناً لها لئلا تضيع.

كانت خطبةً تفوح بالودّ واللطف، ودّ فيها أحمد لو يحلّق في السماوات من فرط سعادته، بدا كمدينة يلتمّ شعثها، وتومض أنوارها في الظلام، فتذكرت قوله «أثقُ بأن هذه العلاقة وهاجة الأثر ستقتبس من نورها وبركتها الربانية، ستضيء بصيرتك، وتلهمك حين تحدّق في قلبي، وتُوسِعكُ وداً ورحمة من غير أن أنطق أو أتأوه. والسلام يا صديقي على قلبك وعقلك وروحك».

بعد عام

كتب في لحظة تجمعنا بالشاي:

«أنا حين صمت فيّ الكلام وفيّ الشعور

وفيّ العقل

مسترسلاً

ألقى نبأ».

6

أبريل اليوم الحادي عشر 2017

لـم يكـن مـا كنـت أشـهده مقطعـاً مـن فيلـم أو مشـهداً مـن روايـة؛ كانـت اللحظـات حقيقيـة، بيـد أنني كنـت أجفّـف العـرق مـن جبينهـا ورقبتهـا ونحرهـا، وأشـدّ على كفّهـا حيـن ترتخـي أو تنغـرس أظافرهـا فـي جلـدي، راقبـت الدمـوع حيـن كانـت تنحـدر مـن زاويـة عينيهـا بصمـت، وحيـن كان تهمـس «لا إلـه إلا اللـه.. يـا اللـه.. يـا لطيـف» ثـم تصمـت وتعيـد مـا سـبق مـرة أخـرى باختـلاف الترتيـب.

عنـد قدميهـا كانـت تقـف قابلـة فلبينيـة تشـجعها بلهجـة عربيـة مُكسـرة: «ادفـع مـدام، ادفـع باقـي شـوية» لتبـذل جهـداً مضاعفـاً كسـا وجههـا بحمـرة الألـم، وبـرز العـرق الأخضـر متعرجـاً فـي جبينهـا ورقبتهـا، ثـم ارتخـى جسـدها. كانـت القابلـة تزفـر وتشـهق بصـوت مسـموع وتفعـل سـامية مثلهـا.

قالت لي: «تعبت».

ليردّ قلبي: «وأنا أيضاً».

قلت متأملاً عينيها: «معليش معليش، هانت يلا بِاسْم الرحمن الرحيم».

أعادت دورتَي تنفس، وبذلت جهداً أقوى من ذي قبل لتفسح المجال لخروج الجنين العالق بين فسحتين؛ فسحة ألِفَها وفسحة يريدها، ما جعلني أتساءل: هل تشعر بألمه أو صراعه هذا، هل يؤلمها؟ هل تعكس المخاض الذي يعانيه هو فتتصبر بالشهيق والزفير والإيمان؟!

نبهتني الدكتورة بصوتها الحاد اللاذع: «شوفي حبيبة ألبي خلص الراس بان.. فالله يرضى لي عليك دفعة كمان ويشرف غاليكي، إي كمان إي..».

جعلها ذلك تبذل جهداً أكبر حتى انطلقت من بعده صرخة الطفل ضئيلة هزيلة حملته الدكتورة سريعاً تستقبله بابتسامة وألقت به على صدر سامية.

بكت سامية وبكيت أنا، أخذت تشمّه وتقبّله، بينما كنت أتأمل الحب والعاطفة التي تدفقت حياله بعد كل ذلك الألم والبكاء، كيف لها أن تنسى وتبتسم وتضحك وتشعر بالحب أو تملأها العاطفة وتُقْبِلَ على الحياة مرة أخرى؟!

تأملت الكائن اللين الصغير مستلقياً على صدرها يصغي لنبضها ويتشبث بإحساسها، وكأنه يبحث عما يطمئنه ويخبره

عـن الحيـاة؛ الرحـم الجديـد المتسـع، كان هادئـاً متعبـاً مغطـى بقشـر أبيـض وبشـفةٍ زرقـاء وأنامـل طويلـة، أخذتـه الممرضـة بعـد ذلـك، وعينـاي اللتـان كانتـا تتبعانـه تذرفـان.

«حمـد للـه علـى سـلامتك» قلـت ويشـهد علـيّ اللسـان والفـؤاد بأننـي كنـت فـي غمـرة العاطفـة.

ابتَسَمَتْ ثم قبضت على كفّي.

عـدت للمنـزل مكرهـاً راغبـاً بقربهـا واحتوائهـا، فرحـاً بشـعوري الجديـد، وأشـتاق إليهـا. اسـتلقيت علـى الأرض أفكـر فيمـا حـدث فـي المستشـفى.

لا أبالـغ حيـن أقـول بأنني كنـت أُشـفى مـن مخاضهـا، ويتبـدل العسـر فيّ إلـى يُسـر!

لا أبالـغ حيـن أكتـب بـأن هـذه الـولادة قـد أزالـت الـران عـن قلبي؛ ذلـك أن علاقتي بسـامية كانـت علـى شـفا جـرف هـار إلـى مـا قبـل ولادتهـا، أو لأقـل ولادتـي!

الـولادة التـي لفتتنـي إلـى لحظـات حيـن ريـح عاصـف كانـت تأتـي فتجتـث السـكن والمـودة مـن أرضنـا، يعلـو معهـا صـوت الجـدال والذعـر ويغيـب بعدهـا السـلام. نقـرر الفـراق فتعيدنـي أمـي إلـى رشـدي وشـقيقها إلـى قلبهـا؛ «عنكـم ولـد ومرتـك حامـل».. «ارجعـي لبيتـك ابنـك شـو زنبـه!».. «اصبـر».. «اصبـري».

نعـود كرهـاً لنلتصـق دون غفـران، نبتسـم بـلا شـهية، تبكـي وأولـي ظهـري، يجمعنـا الطفـل وأحيانـاً الطعـام.

تتالـت عليهـا الانقباضـات منـذ يومين، استحكمت في الليلـة السـابقة. في التاسـعة صباحـاً كنـت أشـعر بهـا فـي الجهـة الأخرى مـن السـرير تتألـم بصمـت، تضيـق أنفاسـها، قامـت مـن السـرير وخرجـت مـن الغرفـة، مـرت عشـر دقائـق ولـم تعـد. حيـن انتبـه الإنسـان بـي قمـت مـن السـرير وتوجّهـت خـارج الغرفـة، وجدتها تجلـس أرضـاً تتكـوم علـى ذاتهـا، تتألـم بصمـت كعادتهـا.

انحنيت إليها: «هل نذهب للمستشفى؟».

بكـت، فجلسـتُ حائـراً لا أعلـم مـاذا أفعـل، توجهـت ذراعـي إلـى ظهرهـا آليـاً، وصـارت تربـتُ عليـه، حيـن يخفت الألـم كانت تمـدُّ رأسـها إلـى صـدري وتغمـض عينيهـا كنـت أراقبهـا فحسـب دون كلام، لمـا تجـاوز الألـم نصـف سـاعة؛ سـاعدتها فـي ارتـداء ملابسـها وتوجهنـا للمستشـفى.

دخلـت معهـا غرفـة الـولادة لأول مـرة مدفوعـاً بطلـب الطبيبـة: «ليتـك أخـي تكـون معهـا؛ وضعهـا شـوي حـرج».

حيـن توجهـت لزيارتهـا فـي اليـوم التالـي شـكرتني يغمرهـا الفـرح لوجـودي إلـى جوارهـا لحظـة الـولادة، تحشـرجت الكلمـات فـي حلقـي، لـم أعتـد مبادلتهـا الطيـب مـن القـول إلا نـادراً. قلـت أخيـراً «بـل أنـا مـن يشـكرك».

حسناً لم أعتد تلك الوقفات التي تُحيّر المرء، فلا يدري ماذا يفعل، أو كيف يتصرف حين الأزمات، بيد أنني لم أكن قريباً منها بما يكفي، لكن الإنسان في كل أحد، والعاطفة لدى كل أحد، وحين كنت معها في تلك اللحظات، كان إنسانها يدلني على خاصتي، ويوجهني كيف أتصرف معها وأحنو عليها. هي أنثى ورحمة، ولا أقول بأن الذكر عكس ذلك، ولا يعجبني إسقاط الخطأ فيسيء أحدنا التعامل، لكنني كنت غائباً عن الإنسان بي وعن قلبها ووجودها».

7

أبريل اليوم الثاني عشر 2017

«يُحييك ما يُبْعَث هادئاً رقيقاً من الأشياء والطبيعة، أو صاخباً مبهجاً من الناس، فعلاً أو قولاً، أو لأقُلْ موسيقى؛ بيد أنها تفعل في النفس ما تفعل، قد تغيب عنها وقد تحضر فتمكث فيها بقدر ما تمكث.

هذه الموسيقى التي تبعث السحر في الوجود وتؤثر إن لم أبالغ في جريان المحيط واخضرار النبات ومزاجك برغم أثرها ووقعها الخفيف.

وعيت منذ سنّ العشرين أن موسيقى جسدي لا شرقية ولا غربية، لا تتبع منظومةً ما أو قانوناً أو تقليداً أو مزاجاً محدداً أو فكراً محدوداً، أبحث عني فأجدني عند ما يتعلق بالفضاء والأرض أو نفس الإنسان، ليتسع وعائي فأبدع وأُقْبِل وأحبّ وأتعلم وأتجاوز حدود العقل والتقاليد والطائفة والديانة، وأنشر القبول والحبّ في الأرض علناً؛ بذلك نُشفي النفس المرهقة بالأفكار والأحكام والانفصال ونَشفي الأرض.

تلـك الموسـيقى جعلتنـي أقـف فـي المرحلـة التـي خُيّـرتُ فيهـا بيـن سـعة الارتبـاط برجـل وحريـة الارتبـاط بـي؛ ذلـك أنـي فقـدت الصِّلـة بينـي وبيـن صوتـي الداخلـي، برغـم النـور المُتكشـفِ بجلاء لـي. اخترت عمر خيرت ليرافقني في رحلة الصِّلـة بالأبـديّ فـي داخلـي بمعزوفتـه (أندلسـية) التـي لطالمـا خطـرت علـيّ بإلحـاح منـذ يوميـن.

فـي الدقيقـة الثانيـة واثنتيـن وعشـرين ثانيـة مـن المعزوفـة، كان اللحـن ينسـاب في جسـدي رقراقاً، يوقـظ كل خليـة، فأقـف عنـد سـاحل الأضـداد التي لـم تكـن لتمتـزج أو تلتقـي إثـر بـرزخ، كلاهمـا علـى حـدة، لكننـي اسـتطعت أن أرى أنهـا تشـكل جـزءاً منـي، كالموسـيقى تمامـاً، تنبعـث مـن كل الحضـارات والثقافـات والجهـات بأنـواع وألـوان قـد لا تتشـابه؛ ترسـل برسـائل تعريفيـة للعالـم، وتوحـي بالتعايـش والسـلام.

زوجـي مـن جمهوريـة لا تمـتُّ لمملكتـي بصلـة، ثقافتـه وتقاليـده وبشـرته واهتماماتـه حضـارة أخـرى، المدينـة التـي نعيـش فيهـا لا ترتبـط بحـدود مـع مدينتينـا، يختلـف الطعـام والأشـخاص والتضاريـس، غيـر أن النهـر جـارٍ هنـا. فـي مدينتـي الأم صحـراء، وفِـي مدينـة زوجـي بحـر!!

طفلـي الأول كانـت لـه موسـيقاه البدائيـة الخاصـة، لكنهـا علّمتنـي كيـف أتصـل بـه، وأفـكّ شـيفرته، وأفهـم حاجتـه، كان يبكينـي بـكاؤه فـي تلـك الأولـى التـي كنـت أشـعر فيهـا

بالدهشة والارتباك لقدومه، يرق قلبي حين يتسلل إليّ صوته من الغرفة المجاورة وحيداً. نما أشهراً فبات يناغي ويبتسم في وجهي ويقرأ عينيّ. كانت عينانا تصدر لغة نفهمها، نما عاماً آخر واستطعت أن أربط ما بين حروفه المتقطعة فأفهم كلماته وعباراته القصيرة المبتورة، وجدت أنّي وطفلي متصلان. قال لي زوجي مرة: «كل أم تعلمها الفطرة، الأمهات بهداية الرب».

في السابق حين كنت أزور جدّتي، كنت أراقب البدوي يجر عصا ربابته فتستحيل الذبذبات صوتاً يضج في سكون الخيمة، يطرب ويترنم بكلمات لا أفهمها، ويتمايل يمنة العاشق، ويسرة المتصل بالتراب؛ كنت أتساءل هل يحبّ العزف لأنه يجد في الموسيقى المنبعثة راحته، أم لأنه يبث الحياة والبهجة في الوجود؟

كانت جدّتي تعيش بصحة وقوة، وتمصّ التمر، وتتذوّق لبن الإبل تذوقاً، وتحضر مع القهوة وسيجارتها وصحرائها من لحظات الفجر الأولى، تطربها موسيقى الصحراء، وتجعلها تتمايل، ربما لأنها ما زالت تمنحها الشعور الذي عاشته في السابق؛ القوة والأصالة والحرية، وتذكّرها بالخيمة الأولى وقطيع الغنم الأول، وصهيل الخيل ورائحة الحطب والنار، وذكريات أخرى تسليها لا ترغب بنسيانها، برغم التنقل الذي كانوا يقومون به بين الوقت والآخر.

هي لا ترغب أن تفارق الصحراء والثرى مدّ البصر، وكثيراً ما تضيق حين زيارات الضرورة للمدينة، لا تحبّ الحدود التي تحيط بأغلب الأماكن ولا الأشياء الحديثة، تزعجها رائحة الهواء الممزوج بدخان المصانع والبحر الملوث والغذاء المهرمن.

الصحراء.. قرّبتني من رؤيتي، أورثتني الصمت والحكمة، والاتصال بخصلات شعري وقلبي وصدري وسائر الجسد، وحين كنت أعود للمدينة أجرُّ صمتي وحكمتي معي، كنت أرى الحياة من دفقة أخرى تجري ما ألفتها، فتوسعني إِيمَاناً.

أحبّ الحوار عبر التأمل الذي نتبادله سوياً دون أن نضطر إلى الكلام، يأتي منساباً سارياً دون جهد. سألتني بينما كنت أجلس بظهرٍ مستقيم وعينين مغمضتين عبر روحي: «أين أصبحتِ؟».

«عند ذرةِ التراب» أجبتها.

«ما الذي أوحت به إليكِ؟».

«الخفة حين الشمس والريح وتعاقب الأربعة، الحب بعد التجربة، والتواضع والبساطة بعد الغوص في اللون. أحببت وهج اللون البني وذاكرته برغم خطوات المارّين والدواب وحرارة النار والرماد والمعادن».

«ما الذي يوحي به ذلك إليك؟» سأَلَتْ.

«حسناً. كثيراً ما يجعلني السرّ المُودَع في التراب أتساءل وأتذكر الرحمة والقدرة والإبداع؛ إذ يمتص الذبول والأرق من الجسد، يبلله المطر فيستحيل طيناً ينتشل الأحذية، وتغوص فيه الأقدام، ما جعلني أتعلم كيف أعيد تشكيله جراراً وفخاراً وفناجين وأوعيةً على يد الحاج عبد اللطيف؛ كان ذلك يحرك الشقاوة وهدوء مساحتي البيضاء، ويُبقي طفلي الساحر بداخلي يقظاً يرغب بالابتكار، والأهم من ذلك يشغل الموسيقى».

هنا غنّت روحي نصاً تدفق حين تجولٍ في الطبيعة من روح الشاعر الفرنسي فيليب جاكوتي:

«أثرٌ رقيق وصامت خَلّفَهُ جميع الذين ساروا هنا

منذ زمن طويل

أثرُ حيوات وأفكار عبرت من هنا

غزيرة، متنوعة

آثارٌ حديثة لرعاة وصيادين أولاً

وأخرى لعلّها لمتنزهين عاديين

وأطفال وعلماء نبات وعاشقين

الزمن البشري الذي يدوّن خطوطه المرنة في الأرض».

8

أبريل اليوم الثالث عشر 2017

ـ لمَ الرقص؟!

ـ أكتشف به معنىً ذاتياً!

قد يكون عشوائياً أو منسجماً منظماً، يجيده الطفل والرجل وكذلك المرأة؛ هواية، وعملاً، وحتى موهبة يضج بها العالم. لكن (معنىً ذاتياً) جعلتني أتساءل عما يمكن اكتشافه من مجرد حركة أو رقصة يتحركها الجسد! نعم هو حركة، لكن تلك الحركة تأتي مع الانتباه، وتأتي أيضاً كرد فعل مُبهج؛ كأوراق الشجر وأجنحة الطير والموج التي ترقص وموسيقاها الرياح أو العصافير التي تثيرها، ككل ما في الكون من متحرك يسبح في فضائه ويدور في فلكه.

«أنتِ تمشين وتركضين وليس كأنكِ ترقصين. الرقص فصل من فصول الحركة، وليس كل حركة رقصة!».

ـ كيف تكتشفين به معناكِ الذاتي؟!

ـ لا أنسى باولو كويلو حين ذكر في روايته ساحرة بورتوبيللو: (الرقص يجعلك في وصال مع شيء أعظم منك). الرقص وسيلة لفضاءات متسعة، وقبل كل شيء بفضائك الداخلي! ينزع عنك مثلاً لباس اليأس والحزن ليريك الحبّ والإيمان، يهديكِ مزيداً من الثقة والاحترام، يقوّم اعوجاج ظهركِ ويمنحكِ الأمان.. صدقيني!

أصابعها، معصمها، كاحلها، شعرها، وأخيراً خصرها الذي ذكرت بأنه مكمن الإبداع؛ جميعها كانت تشاركها الرقص، وتتحرك في انسجامٍ وخضوعٍ تام للموسيقى حولها، إن لم تكن فيها.

ترقص حين تغضب أو تحزن، وتضيء عينها بإشراق حين تفرح. أدركت الآن سبب أُوِيِّها لغرفتها بعد نوبة غضب أو حزن، تغلق الباب وتظل إلى ما شاء لها أن تظل، تخرج بعد ذلك يصحبها ذلك الشعور وكأن شيئاً لم يكن.

حين كنت أرقص في لقاءاتي مع الأصدقاء كنت أشعر بالبهجة تصّعّدُ إلى دماغي وحنجرتي، فأغني الأغنية وأتكاثر مع اللحن. الفرق ما بيني وبينها أنني أظن أن الرقص هو تعبير للفرح ومشاركة للأصدقاء وللآخر في احتفاله، بينما تعتبر الرقص ـإضافة إلى ما أظنهـ وصفةً شفائيةً علاجية وصلةً بين الإنسان وروحه أو حضوره.

بعد ذلك أصبحت تقوم به في حالات انتشائها سعادة، وهو ما تطلق عليه نشوة الروح، فباتت ترقص مع أطفال العائلة حين زيارتهم لنا، وكنتُ أتأملها وعفوية حركاتها الآسرة، تعجبني وتدهشني وتضحكها تعبيرات وجهي.

ـ أجدكِ خير من يقوم بذلك؛ فالأطفال يستلطفونكِ ويبادلونكِ الاستمتاع والرقص، كما أنهم ينسجمون مع براءتكِ، وأظن بأن اقتراح غادة سيلمسكِ بشكل أو بآخر.

ـ ماذا يا تقوى لو أن براءتها هذه تصلُ الآخر بحقيقته حيث الانبهار؟!

ماذا لو كانت الحركات والطقوس والإيماءات والتعابير منها هي ما يشدُّ الآخر إليه، وإلى جوهر الحياة والوجود والنفس؟!

قرأتْ عن الحركة والرقص، وتأملت الراقصين، وبحثت على مرّ الثقافات، فآمنت وأحبت هداياها الربانية، وانضمت أخيراً للنادي المجاور لمنزلنا لتُدرّب الرقص. بعد عام كان لها (فَلَك) ناديها الخاص الذي تقدم فيه حصصاً أسبوعية وجلسات شفائية تجميلية بالرقص.

9

مايو اليوم السابع 2017

لم تُشِر نظرة المعلم إلى الرضى، لكنه أومأ برأسه.

رفعت رأسي أتأمل اللوحات المثبتة على الحائط أمامي بخطّ أحمد عارف، والسلطان محمود خان، والرفيق بالحرف رفيق، ومحمد شوقي أجمل من خَطَّ بالثلث والنسخ؛ أقتبس من كلماتهم روحاً تتجسد خطاً على سماء الورق.

قال لي حين هممتُ مرة أخرى بالكتابة: «آمِن بيمينك».

تذكّرت وقتها أخي الذي كان يعلمني القراءة والكتابة لما كنت طفلاً، يقبض على كفّي فيحركها بحسب اتجاه الحروف والنقاط والحركات، يغنيها لي ويتهجؤها معي، تاركاً لي حرية كتابتها بعد ذلك، الأمر الذي جعلني أحبّ الحرف وأتعلق بمادة الخط والكتابة.

بدأت بالشين فكانت تتفشّى في مسام الورق، تنتشر كنورٍ بنقاطها الثلاث والضمّة أعلاها، ثم بالكاف تدور حولها

وتحيطها بالعرفان، ثم الراء نسمة تقود ذلك النور، وأخيراً بالألف خاتمةً لبدايات شكراً.

كانت الورقة تشبه السفر البعيد الذي تتنقل فيه الحروف كقطارات تقرب المسافات وتجول في العشب والزهر. تعلمك من خلالها أن تكون جواداً مع الحروف، صبوراً لطيفاً لتخرج آمنةً مطمئنة، بل وتتبادل وإياها التقدير كوننا خَلْقاً تنفثنا الروح ويعيد كلٌّ منا تشكيل الآخر.

حين شاهدت فيلماً حاز أوسكاراً، وأعدت مشاهدته في اليوم الذي يليه مستدركاً التفاصيل التي غفلت عنها، والتي انتبهت إليها سابقاً؛ تذكرت الريشة والقلم والورق، أتبعته بمقابلة تلفزيونية لبطلة الفيلم التي بادلت شخصيتها الحب.

جعلني الخط أدرك معنى أن تكون مُختاراً لفنٍّ ما، ومعنى أن تكون مهذباً برفقته منصتاً متحلياً بالصمت، كما جعلني أؤمن بأن الكلمة ما هي إلا روح مسافرة، وكان ذلك ملهماً لحاستي السابعة؛ فكنت لذلك أتأمل الكلمات في لوحات المحلات التجارية والمعارض، وفي الإرشادية النابتة على الطريق، متشابهة الخط والمائلة أحياناً وتحمل روح المكان، وإن لوّحتها الشمس، كنت أقرأ من خلالها أمنياته وحكاياته وعاداته، وأتعرّف إلى روح أصحابه وساكنيه.

كانت القرى الصغيرة ببساطتها وغرابة أسمائها أحياناً

بلوحات تقليدية الاسم والمعنى، بينما المدن بالعكس تماماً؛ إذ تظهر أحياناً ملونةً برسوماتٍ جرافيكية، أو مشوهة بخربشات أقتبس من تعرجاتها حكاياتٍ، فأبدع بخطٍّ جديدٍ.

حتى عندما كانت تجول عيناي في أرفف السوبر ماركت والمكتبات؛ كانت تتأمل الكلمة في الحقائق الغذائية والمكونات، وعناوين الكتب والألوان، وفي كل مرة تلتفت لشيء آخر يتجاوز الحدود التي ألفتها وعرفتها، لذلك باتت (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم) في قلبي ولساني، أقرأ كتاب الكون المفتوح، وأعبّر بالخط والكلمة؛ فيتكرم الله عليّ بفتحٍ لا يشبه سابقه.

أسدى إليّ صديقي ذات مرة متعة تصميم بطاقة دعوة زفافه الذي أقيم في إحدى الحدائق نهاراً، فقد أراد أن يكون ذلك اليوم بسيطاً أخضر؛ فاخترت لذلك لون العشب ولون الليمون، كما اختار النسخ أن يكون حاضراً بشموخه الفضي خطاً للبطاقة التي كانت تجعلني أبتسم في كل مرة تقع عليها يدي يبرز منها هدى وأنس فيها بودّ ورحمة.. فيخفق قلبي.

10

يوليو اليوم التاسع عشر 2017

«أعتبر أن الدانتيل هو أجمل تصور للطبيعة، فلطالما أستحضر إلى ذهني تلك التفاصيل التي تطرّزها الأغصان وأوراق الأشجار في السماء» كوكو شانيل.

هي أول ما خطر على ذهني حين رأيت قطعة الدانتيل الصفراء تشرق من بعيد، ولها وهج أنيق بين يديه، قَلَّبَ القطعة بين يديه فأعادها للكيس مرة أخرى، مومئاً برأسه باعتذار وبكلام لم أتبيّنه. بدا أن الزبونة تجري محاولةً ما؛ كان ذلك واضحاً من لغة جسدها، لكن يديه اللتين ارتفعتا لمستوى صدره وابتسامته كانتا تشيران إلى الاعتذار، استلمت قطعتها بشيءٍ من الاستياء، خرجت من المحل، ناديتها فتوقفت بتردّد وبوجه بادٍ عليه اليأس.

سألتها «كيف أستطيع خدمتك؟».

«عفواً!» استغربتْ.

«عـذراً علـى التطفّـل، لكننـي كنـتُ أراقبـك بينمـا كنـت فـي المحـل المجـاور وقطعـة القمـاش خاصتـك، دعينـي لا أطيـل عليـكِ، أنـا مسـتعد لتنفيـذ مـا تريديـن، إن كنـتِ ترغبيـن بذلـك».

رفعـت رأسـها للأعلـى تنظـر للوحـة المحـل، وصـارت تتأمـل مـن مكانهـا المـكان والقطـع المعروضـة، دخلـت وإياهـا المحـل، طلبـت منـي بعـد ذلـك أن أناولهـا أحـد الفسـاتين التـي قمـتُ بخياطتهـا، وظلـت تتأمـل فـي الغـرز وإتقانهـا مـن الداخـل وجـودة الخياطـة.

أخرَجَـتْ قطعـة القمـاش مـن الكيـس علـى نحـو آلي، شـرحت الموديـل الـذي تريـد مـزوداً بالقياسـات، ثـم سـألت فـي النهايـة: «هـل يمكنـكَ أن تفـرغ منـه فـي أربعـة أيـام؟».

قمـت بحـكِّ رأسـي متأمـلاً القمـاش وموديلهـا الـذي يحـوي القليـل مـن التفاصيـل؛ أجبـت «دعيهـا خمسـة».

فالدانتيـل خاصتهـا يُغـري بالعمـل فيـه، يسـرّ لونـه الناظريـن، مثيـر للخَلـق، والنقـش فيـه رقيـقٌ ناعـمٌ متفـرعٌ كطبيعـة.

تذكّـرت حينهـا التنـورة التـي كانـت بحاجـة إلـى تعديـل طفيـف، أفـرغ منهـا فأتأهـب بعدهـا لقطعتهـا الفنيـة. كانـت تَهُـمُّ بسـؤال مـا، لكنهـا عدلـت عـن ذلـك.

يبـدي البعـض ـخاصـة مـن الذكـورـ دهشـته حيـن رؤيتـي فـي محلـي الصغيـر بلـون حائطـه المحفـز للخَلْـق، أمـارس

مهنة تحبها روحي، ولا أستطيع تحديد ما إذا كان هذا الحب المتبادل بيننا؛ بفعل الوراثة لجينات جدّي الذي كان عاشقاً للخياطة حينذاك وبارعاً فيها، أم بسبب روحي التي أحبتها ومن أول فطرة.

كنتُ أحبّ أشكالي التي تتجسد في النهاية على هيئة فستان أو تنورة أو جلابية، أو أي شيء آخر باختلاف تفاصيلها ونقوشها، الأمر الذي يجعلني أكثر دهشة وامتناناً لله، ولا أبالغ حين أقول بأن الخياطة قربتني من الله، ومن فهمِ نفسي، ربما لأن البشر يحبون أن يكون لهم في النهاية شيء من خلق أيديهم يشعرهم بالقدرة والقوة والإرادة.

أرسلت لها في اليوم الرابع مبشّراً إياها بانتهائه. حين أخرجت لها الفستان معروضاً على المانيكان شهقت، الأمر الذي أثار استغرابي، فاعتذرَتْ لدهشتها كردّ فعل على إعجابها.

دفعت المبلغ المطلوب شاكرة وأبدت تساؤلها ذاك: «منذ ذاك اليوم وأنا أرغب بسؤالك إن سمحت لي عن السبب الذي جعلك تختار الخياطة، وللنساء؟».

«بالنسبة إلى الخياطة كان جدي يمارس ذلك، أحببتُ شعوره حينذاك واعتكافه على القطعة بصحبة السيجارة وإبريق الشاي في دكانه الصغير، أما سبب اختياري للنساء، فهو أن المنتوج هنا غير محدود بقطعةٍ واحدةٍ أو شكلٍ

واحـدٍ، بـل قطـعٌ عـدة بمختلـف الأشـكال والقياسـات، أحـبّ خلقهـا والتعديـل عليهـا بالاتفـاق مـع صاحبـة الطلـب وإتقانهـا، ومـن خـلال ذلـك أرسـل رسـائل شـتى للأنثى بحسـب الحـوار بينـي وبينهـا، فهنـاك مـن تريـد القطعـة أوسـع لتُخفـي أو تضيـف أو تظهـر شـيئاً مـا؛ رسـائل لامباشـرة تحرضهـا علـى الامتنـان والقبـول والحـب.

حيـن أتأمـل صـور زفـاف أختـي أشـعر ببالـغ الامتنـان فتنحـدر دمعـة. أختـي التـي أهدتنـي كلمتهـا «عامـر أنـا مؤمنـة بـك».

كانـت سـبباً لأول الخطـى علـى ذلـك الطريـق مسـتفتحاً بفسـتان زفافهـا الفضـي الـذي كان يشـبه روحهـا فـي نهايـة الأمـر؛ هادئـاً، ناعمـاً، ينسـدل بخفـة، وقطعـاً أخـرى تسـكن دولابهـا وعلـى جسـدها بأناقـة.

11

يوليو اليوم التاسع عشر 2017

كادت تقع من يدي، تعثرت في الطريق مرتين، حين رآني خفّف من خطواته والتصق بي حتى وصلنا إلى السيارة.

اضطرب قلبي حين أغلق بابي وازداد ارتباكي. أدار مفتاح السيارة وقال لي:

«مبارك علينا سمية».

كانت تنام على ذراعي بردائها الأحمر، أخاف أن أضعها على حجري فتنزلق مني أو تصصدم بباب السيارة.

«ستكونان بخير.. صدقيني» قال.

لم أكن أظن أن خيار الاحتضان سيكون مربكاً لهذا الحد، لا سيما بعد سبع سنين قضيتها بعيداً عن تبديل الحفاظات، وإعداد الحليب وهدهدة الأطفال، وبعد سمر التي رافقتنا لثمانية عشر عاماً حتى توفاها الله.

سـألته فـي حيـن مـا زالـت تتـردد «البنـت أمانـة عنـدك»، «اسـتوصي فيهـا خيـراً» فـي أذنـي.

«هل سأقدر؟ أقصد نقدر؟».

«كلانا سيبذل ما بوسعه.. أليس كذلك؟».

أومأت برأسي.

أحبهـا سـعد وكان بمجـرد قدومـه مـن المدرسـة؛ يخلـع حقيبتـه عنـه فيذهـب إليهـا يحملهـا ويلاعبهـا. كانـت سُـمية بعمـر الخمسـة أشـهر، جاءتنـا برزقهـا وصوتهـا الجميـل. انجذبـت قلوبنـا إليهـا فتحـوّل إليهـا مـن الأمومـة والأبـوة جـزءٌ، وبادلتنـا حبـاً فطريـاً عذبـاً بلمسـتها وبراءتهـا.

كنـت ألاعبهـا ذات يـوم علـى مـرأىً مـن سـعد، أرفعهـا بذراعـي عاليـاً فتهبـط إليّ ضاحكـةً، أكـرر ذلـك فيـزداد ضحكهـا وحركتهـا، لـم أعِ إلـى أنهـا وقعـت أرضـاً حتـى هزنـي سـعد. كانـت هامـدةً يغطـي وجههـا شـعرها بـلا نَفَـس. جلسـت بجوارهـا أُبعـد الشـعر عن وجههـا وأنـادي باسـمها، بينمـا سـعد يقـف عنـد رأسـها يبكـي. خـرج الطبيـب مـن الغرفـة تتبعـه الممرضـة معلنـاً عـن وفاتهـا إثـر نزيـفٍ داخلـيّ وكسـر فـي الجمجمـة.. فقـدت الوعـي بعدهـا.

أصـدر القاضـي حكمـه بالسـجن، لـم أكـن أعلـم هـل أبكـي الحكـم، أم حزنـاً علـى نفسـي وعلـى الطفلـة التـي لـم تهنـأ فـي العيـش معنـا إلا أسـبوعاً؟

فتحت عينيّ التي كان يتسلل إليهما شعاع شمس الظهيرة ساطعاً. صرتُ أتأمل ما حولي وأتحسّس الأريكة. وَثَبْتُ حين رأيت سعداً يفترش الأرض يلون دفتراً وبجواره تنام سمية.. شعرت حينها بالبرودة في ظهري وبالعرق الغزير.

12

يوليو اليوم التاسع عشر 2017

كانت الغسالة الأوتوماتيكية تقوم بآخر دورة تجفيف لها في تلك اللحظة التي دخلت فيها القطة إلى غرفتي، وقفزت على سريري، سمعته يقوم بوضع الأواني في أماكنها في الدواليب والأدراج. ذهب الأولاد إلى جامعاتهم، أطلَّ برأسه حين سمع مواء القطة، ألقى تحية الصباح وتوجّه للنافذة كما في المسلسلات والأفلام، فأزاح الستائر عنها، ثم جلس عند قدمي يقبلها؛ عادةً صباحية إضافة إلى السابقة التي يستهويه القيام بها كل يوم.

يسألني عن حالي فأرد: «الحمد لله». حينها ينظر في عيني حين لا يطمئن إلى ردي ويقول: «ولكنني لا أشعر بذلك»، لأصحح: «أنا بخير».

قال لي مرة: «لا بأس من ألا تكوني بخير، أو أن تكتمي شعورك خشية أن تثيري القلق عليكِ، أنا أبوكِ وأشعر بكِ،

لكـن تذكـري يـا صديقتي قبـل أن تقولـي «الحمـد للـه» أو «بخيـر» أن تستشـعريها والسـعة والرحمـة المصاحبـة لهـا، لا تنطقـي بهـا وكأنهـا مجـرد كلمـة».

كان يتشـارك وأخـواي مهـام المنـزل، أراهـم أحيانـاً يضحكـون ويتبادلـون النـكات والمـرح، أو أصغـي إليهـم بينمـا أكـون فـي غرفتي، يذهـب للمشـي، يشـاهد التلفـاز، أو يقـوم بإعـداد البرامـج الإذاعيـة ويناقشـني فيهـا، فيذهـب للنـوم فـي الواحـدة أو الثانيـة عشـرة والنصـف، يطفـئ قبلهـا أنـوار المنـزل، ويطـلّ برأسـه مـن بـاب غرفتـي المفتـوح نصفـه، متمنيـاً لـي ليلـة طيبـة.

لـم أسـتطع النـوم تلـك الليلـة، كنـت أفكّـر فـي تلـك المهـام التي كان مـن الممكـن لـي القيـام بهـا وإنجازهـا فـي أسـرع وقـت، عوضـاً عـن أبـي الـذي كان يمتعـه أصـلاً القيـام بمهـام المنـزل، لكنهـا كانـت مجـرد فكـرة خطـرت عليّ أتمـرد بهـا علـى الوقـت الرتيـب. تتقلـبُ أختـي فـي فراشـها، فتسـقط بطانيتهـا مـن علـى جسـدها، ظللـت أتأملهـا وهـي ترتعـش دون أن أسـتطيع القيـام بشـيء، سـقطت دمعـة مـن عينـي فتبعتهـا أخريـات، اسـتيقظت بعـد ذلـك لتلتقـط اللحـاف، غطّـت نفسـها وعـادت للنـوم.

تهاتفني أمي يومياً تحكي لي عـن أحداث يومهـا، وتسـألني كعادتهـا «كيـف قلبـك» أو «كيـف روحـك أو شـعورك؟».

تطمئنني عـن صحـة جـدي الـذي يدعـو لـي وأدعـو لـه. أشـتاق إليهـا وإلـى حواراتهـا العميقـة مـع أبـي ولحظاتهمـا اللطيفـة التـي

يشاهدان فيها البرامج الوثائقية، أو التي تخص عالم الحيوان، يعد لها كوباً من الشاي بالقرفة، تبتسم له ابتسامة عميقة تستقر في أعماق قلبه، يدلّلها يا عصفورتي، يتشاكسان، يغنيان لأم كلثوم، يعزف أخي على العود، نحتفل، نسافر، نضحك.

ساعدني أبي على الجلوس في كرسيّي، وتوجهنا لسطح المنزل، حيث طاولة للجلوس عليها شاي وكعك. صبّ الشاي في الكوبين، ناولني كوباً مع قطعة كعك: «أعلم بأنك سوف تسألينني عن الوصفة من بعد أول قضمة»، وبالرغم من أنه لا يستهويني الكعك، إلا أن هذا الكعك العجيب بالأعشاب والموز والتمر كان فاخراً للغاية ومن عمل الجيران.

قال لي: «تعلمين بأنني أحترمكِ كثيراً يا صديقتي، كما أنني تعلمت منك أموراً شتى خلال هذه الأيام»، وشرع يخبرني عن مدى تماسكي وتمسكي بالحياة من بعد الحادث الذي تعرضت له قبل أسابيع، وعرّضني للشلل النصفي.

سألني: «أتعرفين ما أكثر ما يقلقني بشأنك؟».

أجبته: «وضعي الحالي».

رد: «كلا، فذلك ما يقلقكِ أنتِ، أليس كذلك؟».

أجبته باستغراب: «نعم!».

فقال: «أنا مؤمن بإيمانك بتجاوز كل شيء، لكن يقلقني كتمانك».

«لا بأس من الألم، لا بأس من أن تظهري قوتك هذه في كل الأحوال كما عهدناكِ، كي لا تثيري القلق، لكن هل يريحك هذا؟ هل يريحك أن تبذلي جهداً لإخفاء دموعك حين ترغبين بالبكاء؟ أو يريحك أن تقولي أنا بخير بينما أنت تشعرين بعكس ذلك؟ أو إرغام نفسك على الجلوس معي في حين ترغبين أن تنفردي بك...؟».

كنت أشعر بحرارة الدموع على خدّي، بينما كان أبي يتحدث ممسكاً بيدي ومحرضاً إياي بطريقة ما لأن أبكي وأبدو في أشد حالاتي الإنسانية ضعفاً.

وجدت نفسي أمسكُ بالطين الذي ابتعته، وأجري محاولات عدة لتشكيله. أعجنه بالعجز المتدفق من بين أصابعي والخيبة، أصرخ في بعض الأحيان حين يكون عصيّ التشكل، ثم أبكي وأركنه بعيداً، يؤلمني تلاعبه بي، وقدرته على إثارة مشاعري، في الوقت ذاته الذي كان فيه يوقظ القوة والإيمان الغافيين بي.

13

يوليو اليوم التاسع عشر 2017

أجلس بجوارها على الكرسي القماشي وأمدد قدمي، أتأمل ضعفها ووداعتها على ذلك السرير الأبيض، يتدلى من حلقها أنبوبَا تصريف الدم، بينما أحاول أن أحوّل بصري عن الشق في رقبتها إثر الجراحة.

أغمض عينيّ قليلاً فتطوف حينها الذكريات بيني وبينها، تطفو مشاعر الغضب والألم وافتقاد أمومتها التي تتوارى خلف الكبرياء والصمت، تتقد العاطفة حين المواقف الحرجة التي تستدعي قرباً واحتواءً، تتلاشى بعد ذلك.

أمي .. أمي لحدّ آخر يوم في عمري.

تدور الأغنية في رأسي التي تدندنها دوماً إحدى صديقاتي العربيات فأغنيها بصوت هامس كي لا تستيقظي، هل تصدقُ وعود الأغنية يا ترى، فيعيش الأطفال والأبناء مع والديهم تحت ظل الرخاء العاطفي، يتبادلون الأحضان والحُبّ،

ويعبرون عن مشاعرهم دون خوف أو خجل، برغم مشاعر الجفاف المُتوارثة؛ فجداي اللذان كانا يجهدان في أرضهما ويهبانها الكثير من الحبّ ويغدقانها بالماء والبذور، لم يعبرا عن شعورهما آنذاك أو محبتهما؛ الأمر الذي يجعلني أتساءل كيف كانت تسقى أرضك؟!

أمي الإنسان:

هأنذا أمامك بين التسليم والرجاء، أكْبُرُ بالعاطفة، وأنضُجُ بتأملك، فيخشع جسدي الذي سقيتِه حليبك أبيضَ، وقلبي الذي يرتبط بك بحبل سِريّ ويدعو لكِ.

لا يهمني الحبّ ولا الرغبة القديمة بأن تحتويني، لا يهمني حقي من الأمومة وواجبك من البنوة، يهمني أنتِ فقط، أن ينتزع الأطباء منكِ هذه الأنابيب في أقرب وقت، وأن تستطيعي التحدث بصوتك المعتاد، وأن تعودي فحسب.

تحرك أمي أصابعها وتقبض على غطائها، تصدر منها أنةٌ ربما من شغاف قلبها، تفتح عينيها بالتدريج، تحدّق في اللاشيء فتغمضهما بعد ذلك، يأتي أبي بعد ذلك يسأل عن حالها، يربّت على كتفي، ينقل لي مطمئناً «بخير» التي تفوّه بها طبيبها، وبأنها تحتاج إلى يومين أو ثلاثة للتشافي.

«هل تفتقدها يا أبي؟» كنت أهمّ بسؤاله حين رأيت عينيه تفيضان بالحنين والمحبة، فيما كان يتأملها، لكنني سكتّ.

بعد أسبوع سَرحَ الأطباء أمي، كانت ساكنة هادئة، تحاول جدتي أن تعوضها الدم الذي فقدته بوصفات طبيعية تُعيد إليها عافيتها، كنت أراقبهما بصمت، تتحد أجزائي بفعل الأمومة، والتشافي العجيب الذي تُظهره أمي، وإن لم يكن هناك عناق أو أُحبك، الأمر الذي جعلني أفطن إلى رباط ليس سريّاً، لكنه غير معلن يربط بينهما، يشعران به ويفهمانه.

سألت جدتي: «هل تحبين أمي؟».

أجابت: «بالطبع كل الأمهات يحببن أولادهن».

سألتْ: «برغم أنني لا أرى منكما سلوكاً يُعبرُ عن ذلك، لكنني أشعر بمتانة العلاقة بينكما، كيف ذلك؟!».

قالت لي: «وإن كان أحياناً السلوك لا يُعبر عن حبّ حين نفعله لواجب ما، كبعض الجنود الذين يدافعون عن الوطن، فهم ليسوا بالضرورة يحبونه، لكن الأمومة أصلها حبّ، وكل سلوك أو شعور متعلق بها يعبر عن حبّ وإن لم يكن ملموساً أو منطوقاً. أعلم بأنكم جيل يختلف عنا، ومن الصعب أن يتوافق جيلكم وجيلنا، وليكن في علمك أن بيني وبين أمك الدعاء والرحمة ورباطاً خفياً تدركه الحواس».

وبرغم أني ما عدت أستدرج الاهتمام منها، إلا أنني كنت أشعر به خفياً رقيقاً خجولاً. قد أشتاق إلى كلمة أحياناً أو حضن منها فأفرُّ إلى حضنها، فتستقبلني ببراعة، وأحياناً

تتغاضى وتأمرني أن أبحث عما يشغلني، وما زلت على احتضانها وتقبيلها والتربيت على كتفها، فقد علمني الحب في الأشجار والهواء، وفي البن والألوان، كيف أعطي وأمنح وأقبل هبات الحب المتجلية برحمة في هذا الكون.

14

أكتوبر اليوم الرابع عشر 2017

(كنت أطير في السماء بلا أجنحة، السماء بلون أبيض، وطيور النورس من حولي تهبط إلى الأرض لتلتقط الأسماك فتعود معها إلى السماء تاركة إياها تسبح في الفضاء، ثم تطير تلك النوارس إلى وجهة لامعلومة.

كنت أستغرب من قدرتي على الطيران بلا أجنحة، صديقي الذي كان يطالعني من الأرض بدا مستغرباً أيضاً! حين توجهت يساراً، رأيت نحو عشرة أطفال يطيرون بأجنحة ملونة يبتسمون لي ويتباهون بحركات أجنحتهم، فيحلقون عالياً مخلفين في السماء غيوماً ملونة بلون أجنحتهم).

استيقظت على إثر الحلم لكنني بقيت في سريري متكوماً حول نفسي وتفاصيل الحلم، يحيطني الظلام وصوت المؤذن للصلاة. بُعِثَ بي فجأة توقٌ لرائحة تدخلني في مزاجٍ يشبه الحلم؛ كتلك التي تفوح من قهوة عربية أو خشب العودة، أو إلى نسمة هواء ليلية تحمل أشواق المحبين ودفء الصلوات.

بعد أسبوع ذهبت وصديقي لزيارة معرض في مركز اجتماعي أقامته جامعة ما، كان يعرض من تراث البلدان المختلفة رقصاً وطعاماً وطقوساً، خرجت من بعده وكلي شعور يتوق لأمر مجهول لا أعرفه.

ظل ذلك التوقُ متلبساً بي لا أعرف كيف أترجمه فألبّي طلبه، ولا كيف أتجاهله فأرتاح. تكرر الحلم مرة ثانية، وازدادت حدة التوق من بعده فالحيرة!

خرجت وأصدقائي في رحلة بحرية لممارسة الغوص، الرحلة جرت إلى أخرى في مدينة ساحلية تبعد عن مدينتي مسافة أربع ساعات، ثم إلى جنوب أفريقيا.

لم يكن هناك إلا التنوع، والديانات، والألوان، والروائح، والذكريات، والجنسيات، والأماكن. لم أمارس الغوص هناك بطبيعته المادية؛ بل بحالته المعنوية!.

كان التعرف إلى ثقافة مختلفة بسيطاً من خلال الأشياء؛ كاليدويات والتحف التي تعبر عن المدينة وتحكي عن الناس، ترسم رقصاً أو نساء بغطاء شعر ذهبي وأساور وشفاه كبيرة، أو من خلال القهوة ولون البشرة أو اللهجة الساحلية التي يتحدث بها سائقو السيارات المهاجرون. كان ممكناً كذلك التعرف إلى طبقات الناس المتفاوتة التي يعيش بعضهم في دائرتها كالمشردين والثملين، أو من خلال طعامهم المفضل ومشروبهم

الذي لا يُعمم على أهل البلد كافة، ومن خلال اهتمام بعضهم بالرياضة والمشي والموسيقى والأزياء والاستمتاع.

كنا نسافر في المدينة ونغوص فيها من الصباح حتى السابعة مساءً في الأماكن والأشخاص والأشياء، قبل أن نعود إلى موطننا، نحاول ألا نفوّت شيئاً.

أعادنا المشرّد الذي فارق الحياة ثملاً إلى حياته التي كان يهرب منها، بيد أنه لم يتحسن، أو لم يتعرف إلى زوجة لربما فقدها وأمواله وعمله، ربما لم يصغِ لرسائل البحر أو يُسَلِّم حزنه وأسفه للموج، لم يتعلم من خطوات المارة وضحكاتهم ورغبتهم في العيش، أسرف في الشرب بالمال الذي تصدق به عليه أحدهم، ولم يحاول أن يعيش حياة استثنائية كما وصفتها لويز هاي.

أعادنا كذلك كيليشا وكيبا وشوان إلى عادة الضحك؛ فقد كنا نتبادله بيننا، ونلقي به نكتاً، تعرفنا إلى الأسماء والحالة الاجتماعية، لم نتطرق إلى حال المدينة وشكل المنزل والعمر والديانة، بيد أننا تآلفنا من الابتسامة الأولى ولم نتبادل الأرقام للرسائل.

أعادنا موظف الاستقبال في الشقة الفندقية التي نسكنها إلى حالة السلام، في كل مرة كنا نقابله فيها يتصفح الشاشة الكبيرة أو يخاطب النزلاء أو يقرأ كتاباً، كنا نبتسم ونبادله

السـؤال والاهتمـام، ونتحـدث معـه عـن الهنـد والأماكـن فـي كيـب تـاون وأشـياء أخـرى.

أعادتني كيـب تـاون إلـى نفسي، وإلـى الحـب والحيـاة، وذلك الشـعور بالألفـة والحريـة، وكأنني أحلّـق في سـماوات.

عـدت إلـى الوطـن وغادرنـي ذلـك التـوق المُلِـحّ الـذي أشـعرني بالغربـة، وقـد أيقنـتُ بـأن سـفري إلـى كيـب تـاون كان تفسـيراً لذلـك الحلـم.

15

أكتوبر اليوم الرابع عشر 2017

كان يجهش بالبكاء في سجوده فتخرج الكلمات من بين تضرّعه المضطر متهدّجة بالأوردية، يهتز كتفاه للأعلى وللأسفل بالتزامن مع البكاء والتضرع. كانت تجوب المكان رائحة أقدامٍ وجوارب خَلّفَها الناس، وتستوطن السجاد بضع بقعٍ بنية.

قمت من مجلسي، ربتُّ على ظهره وتركته لربّه متوجّهاً خارج المسجد إلى محرابي الآخر أقيمُ صلاتي الأخرى، أنثر الحَبَّ للحمام، وأبتسم لبائع الكشك قبل أن يناولني كوب الشاي فأتجه للشاطئ، أخلع نعليّ فأمشي حافي القدمين، أنصب حامل اللوحة وأضع لوحتي عليه فأمسك بالفرشاة.

يصدح صوت فيروز من خلفي، ومن أمامي يعلو صوت الموج، عن يساري تموء قطتان فيتحول المواء إلى عراك، تتباين الروائح فيصّعّدُ في السماء الطيبُ منها، أما العفِن

فينتشر في الجو قبل أن يمكث في الأرض، أشمّ رائحة فول وقهوة بأنواعها وعطر نسائي وعرق قديم، فتسكن في أنفي رائحة البحر وألواني ولوحتي.

أعلقُ في مساحة اللوحة مزدحماً باللاشيء، أحاول فأرسم لاشيء، خطوط المنظر تسكن رأسي، لكني لا أستطيع رسم شيء، أضع الفرشاة وأكفّ عن الرسم، أتجول قليلاً بالقرب من اللوحة محاولاً غمر قدمي بأكملها في التراب، تستلمني الرطوبة فأسكن.

على بعد أمتار مني سيدة عجوز، تجلس على كرسي قماشي ترفع يديها فتصلّي، أتساءل في سري: «هل ستدعو لي؟».

رحت أتأمل الشمس التي استيقظت لتوّها برتقالية باردة شيئاً فشيئاً، حتى بدأت تثير الدفء وتلسع وجهي بحرارتها، لأبحث عن كرسي وظلّ..

مر اثنان عبر دراجتيهما، راقبتهما حتى غابا عن عيني، وضع أحدهما طعاماً فائضاً للقطة النحيلة التي سرعان ما هرعت إليه، ركض طفل حين أفلته والده حُرّاً، ركض آخر خلف الحمام الذي استقر على الأرض ليلتقط المخفي في العشب. فُتحت نافذةٌ قلبية شعرتُ من خلالها بوهجٍ ذهبي لامرئي، لم أتوجه على إثرها للرسم، بل بقيت في مقعدي أتأمل الألوان والروائح والشعور والأشخاص والقطط.

اقترب توأمان مني، جلس أحدهما بعد محاولة طفولية لتسلق الكرسي، بينما وقف الآخر بجواري، شرعت في ملاعبتهما، كانت أسرتهما تراقب من بعيد، عدت إلى اللوحة، حينها أمسكت بالفرشاة، رسمتُ (صلاة)، حيث عجوز يستقبل الكون ويقيمُ بعينيه صلاته.

لم تكن التفاصيل تتشابه، فقد كنت آتي إلى هنا بين الأسبوع والآخر؛ تأخذني مني إلى اللوحة أو إلى نفسي أو في رحلة في رحاب الكون، لم أكن أشعر بالرتابة؛ فقد كان هناك في كل مرة حدث مختلف وأشخاص مختلفون.

16

ديسمبر اليوم الثاني عشر 2017

مذ قررت الانتقال من الوطن الذي سقاني من حليبه وأهداني قلبه، رغبةً في اللامحدود، ورهبة من المحدود، واخترت الهند، وأنا بين دهشة وأخرى، تبحث بصيرتي عن الحب والتعايش.

أحببت الهند من العمر الذي كانت فيه أشجاري تستقيم على مهل؛ من مشاهد سينمائية كان يتخللها الغناء والألوان، وتطفح بقصص الحب والعداء، حتى رأيت ذلك عياناً، ومنها تذوقت الحب منكهاً بالفقر والثراء، متسللاً من البيوت والتوابل وأكواب الشاي، قرأت الحِكَم من أعين الناس وكراريسهم ودكاكينهم. لم تنقل الأخبار إلا الحروب والانقسامات وبقع الدم، ولم تخبرنا ـ كما فعلت السينما ـ عن الوجه الحيّ الآخر، الوجه المناقض للموت والخلاف والشر والجريمة، حيث الرقصات والاحتفالات والألوان والغابات الاستوائية والفنون.

فـي مقابـل اللواتـي بكيـن وتألمـن، كانـت هنـاك أخريـات يضحكـن ويبتسـمن بأسـنانٍ صفـرٍ ووجـه أسـمر، مقابـل الازدحـام والضجيـج كان هنـاك فسـحة خضـراء سـاكنة يمـارس الهندوسـي فيهـا صلاتـه ويسـتلقي فيهـا السـياح والـزوار. كنـت لتشـاهد الغرائـب والعجائـب؛ فـي المعتقـد والإيمـان الـذي يعتنقونـه، مـن أجسـاد البعـض الذيـن كان يبـرز مـن أرجلهـم وظهورهـم أطـراف زائـدة، أو يتمتعـون بقـدرة مـا تجـد التقديس والانبهـار مـن الآخر.

تحـل السـابعة فأنتعـل حـذاءً مريحـاً وأرفـع شـعري وأخـرج، أمـرّ علـى كشـك الشـاي، أتبـادل التحيـة والحديـث مـع كاران الصبي ذي العينيـن الغائمتيـن والآمـال الكبيـرة. كان يحـب التدويـن ومراقبـة النـاس، لديـه عقـل أكبـر مـن عمـره، تبهـرك ابتسـامته ومراوغتـه، كان يحـب طاغـور ابـن كالكتـا، وكثيـراً مـا كان يـردد:

(خلف شبّاك الحديد الصدئ المقابل

تجلس فتاة، داكنة، شاحبة

كزورق عالقٍ على ضفّة رمليّة

في الصيف حين يكون النهر ضحلاً

أعود إلى حجرتي بعد عمل يوم،

عيناي مشدودتان إلى وجهها

هي بحيرة معتمة يحفّ مياهها ضوء القمر

لها نافذتها للحرية: فيها ضوء الصباح يلاقي تأملاتها

وعبرها عيناها الداكنتان كنجمتين ضائعتين ترحلان عائدتين إلى سمائهما).

كما أحبَّ تشارلز ديكنز من مجرد نقاش عنه حين إعداد الشاي دون أن يقرأ له. كان يطمح لأن يسافر إلى رامبور ليتسنى له الذهاب لمكتبة رضا ـ أعظم مكتبات الهند ـ فيطّلع على المخطوطات والمنمنمات واللوحات النادرة بلغات مختلفة.

كان يضع في درج ما دفتراً صغيراً ممزقاً يدوّن فيه وقت استراحته مواقف الزبائن وحالهم، وما يستهويه من حديثهم، ليصبح كاتباً شهيراً حين يكبر، إضافة إلى أن يكون قابلاً للإعارة في المكتبة البشرية التي تعير الأشخاص ذوي الخبرة والمعرفة في حيدر أباد عوضاً عن الكتب.

كنت أحب أن أراقبه حين إعداد المسالا الهندي بمزاجه الذي تفوح منه رائحة الآمال؛ متمتماً بأغنيةٍ لا يسمعها إلا هو، غارقاً في رائحة الهال والقرفة واحتمالات الحياة. وكنت أمرر له في كل مرة بضع كلمات إنجليزية وإسبانية ليضيفها إلى قاموسه، بيد أنه يحب أن يتعلم، بل ويتعلم سريعاً، كيَرّان شعلة النور.

ذكرتني الحياة في الهند بالحب والفرح والأخلاق، بيد أنها مدينة روحانية، كما أن شتى الأديان فيها لم تذكرني إلا بدين واحد تعاليمه السلام وجمال التعايش واحترام الإنسان. كان الذي يعبد الشمس يذكرني بجمال الاستلقاء تحتها،

والـذي كان يعبـد بقرتـه الهزيلـة وذيـل الطفـل النابـت مـن أسـفل ظهـره كان يذكرنـي بالرحمـة وإيتـاء كل ذي حـقٍ حقـه!

لـم تكـن الهنـد الوطـن الأخيـر، بـل تلتهـا رحـلات إلـى تايلانـد والصيـن وإلـى جـزرٍ وقُـرًى صغيـرة، أسـافر إليهـا وحـدي أو برفقـة صديقتـي الإيطاليـة إليـزا. بيـد أن الطفـل الـذي يسـكنني كان يرغـب بالمزيـد.

17

يناير اليوم الثالث 2018

رنَّ هاتفي بينما كنت أتجه إلى المصعد في نهاية الممرّ، كانت أمي بصوتها المُحمّل بالحنان وسلام أشجار الأرز، برأسٍ مغطى بمنديلٍ أبيض منقوش بالورود، وتمسك بأصابعها بكوب الشاي ـ هكذا تخيلتها ـ سعيدة لسماع صوتي وأخباري، وتتحدث بصوت عذب شهي تودّ لو أن تتذوق حلاوته وتجود في مضغه. كنت وشقيقي سعد الأصغر مني بعام نعمل في المدينة وندخلها من بواباتٍ متفرقةٍ تبعد عن قريتنا الأم مسافة ساعات، بينما أكبرنا يبعد عنا مسافة غربة في سنغافورة مع زوجه وطفلته، ونلتقي وإياه في ليلة رأس السنة، بينما أنا وسعد نلتقي وأمي مرةً شهرياً، وربما اثنتين فرادى أو مجتمعين.

ولجت المصعد الذي صعد بي إلى الطابق السابع، دخلت امرأة أربعينية ببدلة رمادية وحقيبة يدوية زرقاء، فيما كنت أحدّق في مدة المكالمة المدونة في الهاتف. كان

للسيدة التي أفسحت لها مجالاً في المصعد شعر مجعد يكاد يلامس كتفيها وملامح جادة.

توقف المصعد عند الطابق الرابع حيث كنت، دخل عامل نظافة يحمل ممسحة وسائلاً أزرق، وأُغلِقَ باب المصعد. فُتِح مرةً أخرى عند الطابق الثالث ولم يدخل أحد. تخيلت المصعد كمحطة تجمع المسافرين تسعى إليهم وتحمل حقائبهم وصلواتهم وانتظارهم وتعلم مسبقاً بمخطط رحلاتهم التي لم تبدأ بعد.

كان المصعد في ذلك الوقت ككلمةٍ تتحشرج في منتصف الحلق، يتحشرج بين الطوابق، مُجْهَداً، مُتعباً يقاوم الهبوط والصعود.

خرجنا نتشارك الإرهاق والصمت؛ العامل إلى مقر سكنه والمرأة إلى منزلها أو إلى اللامعلوم، وأنا إلى بيتي كالعادة. توجهت نحو المكان المخصص لانتظار الباص، فقادتني قدمي إلى المطعم في الشارع المقابل لأبتاع وجبة غداء من النوع الجيد..

فتح الباب بفانيلته التي استحالت للونٍ باهت، ذهل لرؤيتي، سلّمت عليه وأهديته الوجبة بابتسامة لم تعتد عليها جديتي، وسرعان ما احتضنني للدرجة التي استغربتها، وذراعاي اللتان ظلتا تحت الدهشة، التَفَّتا أخيراً حول ظهره.

حين أفلتني اعتذر عن سلوكه هذا، مبيناً عدم أحقيته في ذلك. بكيت حينها ولا أعلم كيف تحررت من عينَيّ الدموع. عدت لاحتضانه مجدداً، وكأنني أغفر لنفسي بهذا الفعل.

لا أدري عـن الدافـع الـذي جعلنـي أقـوم بذلـك، غيـر أنـي شـعرت بدافعٍ غريـب يدفعنـي لعملـه، كنـداء التوبـة الـذي يتبعـك فـي رحلـة الـدرن والخطيئـة.

فـي ذلـك اليـوم لـم يمـسَّ معدتـي الطعـام، ولا حلقـي المـاء، بيـد أننـي كنـت أشـعر بالشـبع والنشـوة، حتـى إننـي هاتفـت حبيبتنـا مـرةً ثانيـة أثـارت اسـتغرابها وشـعور قلبهـا، كنـت أضحـك وكانـت تضحك.

اسـتيقظت ورغبـة لأن يظـل هـذا الشـعور ويبلـغ مـداه مـن البهجـة والاندهـاش. لا يمكـن أن تكـون وسوسـة شـيطان، بـل همـس مـلاك؛ فقـد كانـت مُطَمْئِنـةً ومريحـةً فكـرة تغيبـي عـن العمـل دون أن أقلـق بخصـوص رئيسـي أو الراتـب الشـهري. ارتديـت قميصـاً قطنيـاً وبنطـالاً رياضيـاً وتوجهـت للخـارج بحـذاء رياضـي.

كان الشـارع الـذي اسـتقبلني فـي بشاشـته الثامنـة، خاليـاً مـن الامتعـاض والسـخط وزماميـر السـيارات، يسـتضيف نسـاءً قلائـل تبـان فـي وجوههـن النضـرة والصحـة، يأخـذك عبـق الزهـور فيـه والشـجر المحيـط لأرز وصنوبـر قُـراك الضيقـة.

ركضـت لسـاعة كاملـة، ثـم ببـطء لدقائـق أخـرى جـفّ فيهـا عرقـي، ثـم إلـى منزلـي، ثـم إلـى المجمـع التجـاري لجلـب بعـض الحاجيـات. ركبـت المصعـد مـع زوجيـن وطفليهمـا ورجـل. كان الطفـل الأكبـر حيويـاً يلاعبـه أبـوه، بينمـا الأصغـر نائـم علـى كتـف

أمه يتنفس بصعوبة من أثر احتقان. الرجل الأسمر الآخر كان يعبث بهاتفه.

لفتني الكشك الملوّن في ركن المجمع التجاري، والآخر بجواره الذي تحجبه الستائر، كان الأول يحوي دفاتر وأقلاماً ملونة، تحفاً وتذكارات خشبية، وهدايا غريبة الشكل. يقوم عليهما بائعان أحدهما يبيع الحاجيات ويرتبها، بينما يسأل الآخر أسئلة. سألني: «هل ترغب أن تستكشف؟».

سألته: «ماذا؟!».

«مما في نفسك، ومما في نفسي».

لم يخطر في بالي إلا أن هذا الرجل يمارس الدجل أو يسوق الخرافات، بدا أنه أدرك ذلك فقال لي: «إنها مجرد أسئلة لن تضرك، لكنها ستنفعك إن رغبت».

شعرت بالفضول، وقلت له «حسناً».

أخذني إلى الكشك الآخر المحجوب بالستائر، أزاح الستارة قليلاً لأدخل، وأشار لي بالجلوس على أحد الكرسيين القماشيين، بينما جلس هو على الآخر، تتوسطنا طاولة صغيرة تعلوها مزهرية ورود بيض. كان المكان بسيطاً، لكن حميميته تثير شعوراً ما، وتجمع الشتات والنقائض مواجهة إياها في لحظة حقيقة..

سأل: «تعيدنا الرائحة إلى شيءٍ ما (غائب).. فما هي الرائحة التي تردك إلى غائبك، أو ما غاب عنك؟».

أغمضت عينيّ أفكر، تراقصت ذكريات الطفولة في مخيلتي، حين استيقاظ أبي قبل صياح الديكة مُلهَماً تتبعه أمي لتتوضأ وتصلي، ثم تتجه لإعداد طعام الإفطار طازجاً شهياً لا يشبه طعام المدينة، حين كنت أبلغ من الحياة أربعة أعوام وثلاثة أشهر، ببشرة بيضاء ندية وذاكرة ممتدة كأشجار الأرز؛ تجود عليها الشمس وأصبوحات العصافير الشعرية بما جاد عليها الله، وبقلبٍ سعيد حيّ.

أجبته: «أشجار الأرز بعد المطر».

حين رأى عينيّ تفيض بالشوق؛ تأملني وسكت قبل أن يعقب بالسؤال التالي:

«لو كان هناك سؤالٌ تودُّ لو أن بينه وبين جوابه أمداً قريباً يأتيك من فوره، فماذا سيكون؟».

جال في عقلي الفضول بحثاً عن سؤالٍ قريبةٌ إجابته كاستجابة ربانية، لكنني لم أكن أملك أسئلة إلا أجوبة تقليدية تلقاها عقلي من سنِي الطفولة التي لم تدهشني إجاباتها وحقيقتها في مرحلتي هذه، ولم أسعَ لاكتشافها وتدبرها بطرائق عملية، بيد أنها مثبتة في عقلي. فلمَ السعي خلفها وقد اعتادها العقل برغم أنها لم تَمَسَّ شغاف القلب؛ كـ(هل تؤمن، ومن ربك، وما خاتمتك الدنيوية..؟).

أجبته: «أجبني أنت!».

زمَّ شفتيه وهمهم متفكراً ثم أجاب «ربما سيكون سؤالي: هل سأكون سعيداً قبل أن أموت؟».

سألت: «هل أنت لست سعيداً الآن؟».

ابتسم، فأخبرني بأنه على الرغم من وجوده في هذا المكان واستمتاعه بطرح الأسئلة، إلا أن أحداً لم يكن ليسأله؛ ليس لأنهم لم يكونوا مهتمين، بالعكس، فقد بدوا وكأن الأسئلة أدخلتهم عوالم لم يسبق لهم دخولها.

أجابني بأنه سعيدٌ جداً، لم تلهه نهاية الموت، ثم صحّح ببداية عن الاكتشاف والبحث عن معاني الحياة والإنسان، وبالرغم من ذلك فإنه ما زال يتعرف إلى مفهوم الموت بطرائق عاطفية وعملية أذهلته في رحلة البحث..

سألته «ما الذي عرفته؟».

رد «عرفت ثم أدركت بأنني لم أعرف».

لم أعقّب إلا بصمتٍ أسكت فضولي. فتذكّرت أبي حين كان يقول لي عند شجرة أرز «الصمت في بعض المرات حكمة والحكمة إجابة».

سأل: «لو كنت لوناً في هذه اللحظة، ماذا ستختار؟».

أجبت فوراً: «أسود».

«ماذا فيه؟».

قلت: «سروال أبي، وجلباب أمي، عينا أنثى ودماثة رجل». صَمَتُّ قليلاً فأعقبْت «حبر المخطوطات، كتاب شيخ الكُتّاب، النمل حين كنا نفترش الحقل ونفيءُ إلى حكايات أبي التي تظلنا بينما يحفّنا الياسمين المطل من حقل جارنا».

سأل: «لو علقت في مكانٍ أو شيءٍ ما كالزحام مثلاً، فمن الذي تودّ لو يكون معك في تلك اللحظة؟».

قلت: «أنت!».

أجاب باسماً: «يسرني هذا». ثم سأل سؤاله الأخير: «ما الذي التفت إليه انتباهك هذا اليوم؟».

تسابقت الأشياء في رأسي حتى صرت ممتلئاً بالأجوبة، لكنني اخترت أن أخبره بشأن النداء الذي كان يلحّ عليّ هذا الصباح بأن أتغيّب عن عملي حتى قادني إلى هنا.

فاضت عيناه التي ذكرتني بعيني أبي حين قصصه وحِكَمِه التي كان يُوحى إليه بها، فتتحلّق حوله أنا وإخوتي تجاوره أمي باهتمام، ويشدّها إليه حالُه من الخشوع والحضور. ويشدّني الشعور بينهما، فأراقبه لمساً أو نظرةً أو فعلاً. كنت أحب أمي حين أبي وأبي حين أمي.

سألته: «هل كان لأسئلتك أثر في الأشخاص الذين أتوك هنا، أو لأجوبتهم أثرٌ فيك؟».

«دون أدنى شك». ثم أعقب «فكرة هذا الكشك إلهامٌ في

المقام الأول، والإلهام فتحٌ يتلقاه قلبك وحواسك، والإنسان كما الأشياء رسولٌ ملهمٌ، ولكل أحدٍ رسوله؛ لذلك قد يكون هذا الكشك ملهماً لأحد دون آخر».

«رأيت مجموعة الأسئلة، كما أنني لاحظت أنك اخترت لي عدداً منها، فلماذا هي على وجه الخصوص؟ هل يشعرك هذا بالملل؟ وهل إجابات الآخر إجابات لك؟ و... أتعلم؟ تدور في رأسي أسئلةٌ شتى أظن بأن إجابتها واحدة، وستشبع فضولي، فلك حرية الإجابة وحتى عن تلك التي لم تُسأل».

«الأمر مسلٍّ؛ فالأشخاص لا يتكررون، أنت تشعر فقط بأن هذه الأسئلة تناسب هذا الشخص، بينما تناسب آخر أسئلة أخرى تختلف أجوبتها؛ فهي مقتضبة أو حرة أو عميقة أو تثير الشهية للحياة.. وهكذا.

ثمة أسئلة تولد في لحظة الإجابات وردات الفعل المتفاوتة. والأمر في النهاية مجرد حدس وتكافؤ وتدبر». ثم أعقب «لا أعلم إن كان لا يزال في جعبتي شيءٌ لك، وحتى ذلك الحين وفي كل حين كن بخير ولا تعلق بالماضي كثيراً، ثمة حياة ولحظة بتفاصيل وذكريات جميلة تستحق أن تعيشها. شكراً لك.. كان وجودك طيباً».

18

يناير اليوم الخامس والعشرون 2018

كان النـاس متجمهريـن وسـيارات الإسـعاف والشـرطة تسـدُّ مدخـل الحـارة كالعـادة، مـا منعني أن أصـل إلـى البيـت، فانتقلـت إلـى مدخـل آخـر، مـروراً بالأزقـة الضيقـة مشـياً علـى قدمـي.

كانـت الحـارة غارقـةً فـي الكآبـة حتـى نوافذهـا، الصبيـة علـى غيـر العـادة والظـلام يضـيء البيـوت الخاويـة والصمـت يتسـلل منهـا.

عنـد دكان العـم محمـد كان يحتشـد جماعـة مـن النـاس، أَلجمـت فضـولاً بالذهـاب إليهـم ومعرفـة مـا يجـري. وصلـت إلـى البيـت، فـإذ بخالتـي تهاتفنـي لأجلـب التميـس والفـول مـن مخبـز الحـارة القريـب.

انحسـر النـاس مـن أمـام دكان العـم محمـد كمـوج الجـزر، كان المخبـز مُغلقـاً، ورافـع الخبـاز يجلـس علـى الـدرج أمامـه، فاسـتغربت!

«لـم تسـعفني قدمـي بعـد حادثـة العـم محمـد وجدتنـي أصرف الصبـي وأغلـق المخبز».

«لماذا، ما الذي حدث للعم محمد؟!» شعرت بانقباض.

«وُجـد طريحـاً علـى الأرض، وقـد أُصيـب فـي رأسـه.. حالتـه حرجـة للغايـ..».

قلت مقاطعاً: «العم محمد! لا حول ولا قوة إلا بالله».

وجدت نفسي أتأمل الدكان المغلق.

كان دكان العـم محمـد فـي الجانـب الأيسـر المواجـه للشـارع، حيـن مـروري مـن عنـده كنـت أرفع لـه يـدي اليمنـى ألقي السـلام، بيـد أنـه أبكـم فيبادلنـي برفـع يـده. تجـده إمـا عاكفـاً علـى وسـادةٍ مـا يخيطهـا، أو يحشـوها بالقطـن، أو يقـوم بتفكيكـه موزعـاً إيـاه فـي دكانـه المطلـي بـالأزرق، أو جالسـاً علـى كرسـيه الصغيـر بجـواره إبريـق الشـاي يتأمـل فـي اللاشـيء أو النـاس بملامـح حفـر فيهـا الوقـت أعجوبتـه وذكرياتـه فيهـا.

كثيـراً مـا سـرت الشـائعات بخصوصـه فقيـل إنـه كان صيـاداً وتعـرض لحادثـةٍ أفقدتـه النطـق، وقيـل بأنـه تـزوج عشـر نسـاء طلقهـن كلهـن ولـم ينجـب منهـن، وقيـل إن زوجتـه وابنـه ماتـا غرقـاً أمـام عينيـه، وقيـل وقيـل.. متعـة الأفـواه الفارغـة!

انسـلت دمعـة حيـن تذكـرت الوسـادة التـي أهدانـي إياهـا محشـوة حتـى أطرافهـا بالقطـن، حينهـا قبلـت رأسـه، وابتسـم حتـى بـدت أسـنانه المكسـورة..

كان يبدو من وسائده متقنة الصنع مدى ولعه بما يعمل، عاكفاً شغوفاً متقناً ببراعة، متجاهلاً الوقت.

في آخر زيارة له قال لي رافع بأن العم محمد أفاق من رقدته واستعاد قدرته على الحديث متمتماً بحروفٍ متقطعة، قام بعدها ببيع التميس بالمجان لأسبوع صدقةً جاريةً.

19

مايو اليوم التاسع والعشرون 2018

كانت في المقصورة رقم 3 تفترش نشارة الخشب، تقابل الحصان الممدد أرضاً، وتمسح على ناصيته، يحجب شعرها المنسدل وجهها، وتبكي بحسرة. أدركتُ أن (جايدن) مات.

نرتبط جميعاً بذلك الرباط الذي يجعلنا نتآلف مع النبات ونضحك ونبكي مع الحيوان؛ نربّت عليه فتنبض الرحمة، ويتسلل من عينيه إلينا الشفاء فنشفى، نبتسم فيتلقّف ابتسامتنا تلك، نبكي فيحاول أن يمسح أثر الجرح. عندما مات (جايدن) جميعنا بكى، ولم نملك حينها الشجاعة لأن ندفنه، أو أن نمر من مقصورته بعد ذلك.

قررت الامتثال لأمر الحداد الأسود بعيداً عن المزرعة، ودّعتنا صباحاً، وفي المساء هاتفتني يفيض من صوتها الاشتياق، توصي بالحيوانات والزرع. كانت المرة الأولى التي تسافر فيها بعيداً عن المزرعة، حتى إنها استعانت

بشقيقتها لتعدّ لها حقيبتها، ورافقتها حتى اطمأنت لوضعها، ثم عادت في اليوم الذي يليه.

حين أنشأت المزرعة وزوجها الراحل لم يكن في خطتهما أن تكون مزاراً موسمياً يرتاده الناس، رحبتْ بالفكرة بعد تردّد حين اقترحتُ عليها، بنينا نزلاً مريحاً للضيوف يضم عشر غرف مهيأة للاستقبال، زرعنا الخضار والفاكهة والورود، وأضفنا الحيوانات.

كانت تستورد القهوة والبذور وتصدّر الحليب واللبن والخضار، وتستقبل الزوار، تحبّذ فكرة أن يجيء إليها المسافرون والناس، يبيتون في النزل المُعدّ أياماً وليالي آمنين، يأكلون الطعام المعدّ من منتوج المزرعة، تأخذهم في نزهة على الأقدام، تجعلهم يربتون على ظهر الحيوان ورأسه؛ ليخلقوا بذلك رباطاً وطيداً، تسرّ أعينهم لرؤية الورود الملونة في بقعة مخصصة، ويغمسون أقدامهم في البحيرة المقابلة. كذلك كانت تحبّ أن تغرس قدميها في التربة وتتحسّس لحاء الشجر فتردد «لا شيء يشبه هذا، لا الهواء ولا العشب ولا التراب. صدقني لكل مكان شيئه المخصص له. فالربّ شاء لكل شيء شيئه».

كان (جايدن) الوحيد الذي أبثّ له شكواي فتذرف عيناه، حين يتوجع وأربّت عليه يحنّ ويسكن، وحين أوقد فيه الحماسة يصهل وينشط. لم تكن علاقتي معه إلا عميقة

صادقة، لذلك كنت دوماً أفكر في مقولتها التي لم نعرف قائلها «الحيوانات معلمون عظماء».

بعد أن تماثلتْ لشيءٍ من الجبر عادت ريتا من السفر لتغمر القلوب بالدفء، وتُسَيّر غمامة الحزن التي كانت تظِلّ المكان، تجرُّ معها مُهرةً بنيّة وتبتسم ابتسامتها المعهودة، كنا نبحث في عينيها عن أثرٍ لألم؛ فقد كانت أمنا الرحوم، عانقتنا بحرارة وقالت أخيراً: «الحياة تمضي أليس كذلك؟».

أخبرتنا بأنها ذهبت إلى مكان غير بعيد لتمنح قلبها خلوةً ترتاح فيها وتهدأ، مشَت حافية القدمين، غمستهما في النهر، بكت، صرخت في العراء. قالت بأنها عاشت الألم بتدرجاته الداكنة كما لم تعشه من قبل، تخلّت عن قوتها حيناً لتشعر بسلام أنها محاطة بالدعم النوراني الخفي، كما في كل مرة، وحيناً أخرى لتتسلّل بخفة من تلك المشاعر المتباينة دون صراع. أراحها أن كائناً غير الإنسان يشعر بها ويتبادل وإياها الحب من غير حاجة للبوح، ودون أحكام، وفي أي وقت، أراحها أيضاً أن محبتها ورعايتها لم تذهب سدى ـ نشوة الإنسان حين الأخذ والعطاء ـ بينما كانت تمرر أصابعها على لحاء الشجر والأوراق، وتتأمل البيتونيا الصلبة بأوراقها القلبية الخضراء، وتربّت على ظهر القطط، وتصغي لصوت العصافير حين إشراقة الصباح شاعرةً بالرحمة والوحدة.

ومع كل ذلك أخبرتني بأنها لن تقوم بتكرار تجربة السفر

مـرةً ثانيـة؛ فهـي لـم تكـن يومـاً شـغوفةً بـه، أو بشـأن أماكـن تتمـدد بتواضـع أو إفـراط فـي مسـاحة الكـرة الأرضيـة لتحتـل جغرافيـة مـا، قـد يصـل إليهـا السـائح أو لا، أو قـد لا يعبـأ بهـا مـن الأسـاس، أو يثنيـه عـن زيارتهـا الوقـت أو المـال، فيغـدو معلقـاً بحلـمٍ أو جمـال قـد لا يـراه، فيلهـو عـن الموجـود بالمفقـود، ويغفـل عـن سـعة الموجـود والاكتشـاف.

20

(عُشبي.. مُنعشٌ.. حِرّيفٌ)
يونيو اليوم التاسع والعشرون 2018

كانت العاشرة وخمس دقائق في منتصف الشاشة.. على اليسار 61٪ ما تبقى من بطارية جهاز «الآيباد»، على يميني قارورة ماء فارغة ذات حمضية تجاوزت الرقم سبعة تستعجلني لأنتهي..

تذكرت (سر الحياة أن تموت قبل أن تموت، وتجد أنه لا يوجد موت) لإيكارت تول؟

حين وصلت إلى السابعة والسبعين أخيراً أدركت أن أوان الموت قد حان!

إذاً فلتمتْ تلك الرهبة والمخاوف والتخيلات والتردد والرغبة الملحة، فقد شارفتُ على النهاية، بل البداية!

زفرت طويلاً، وصلّيت وتأملت، وتلكّأت، وأرجأت، وابتسمت، وشهقت، وخاب ظني وتراجعت. اختبرت الفقد والذبول والحبّ والضحك والسفر، والإيمان واليأس وما ورد هنا!

عشت رمزية الحمل والولادة هنا ببراعة، وأدركت بأنه حين تختارك الكتابة ستختبر مسؤولية الجنين الذي سيولد بواسطتك، أنت لا تعلم كم سيمكث فيك، ربما شهراً، اثنين، عاماً، مرتبطاً بحبل الإلهام السري فيك، يكبر ويتضخم أو يعتزل وينزوي عنك بعيداً، وتضطر إلى أن تمنحه مساحته وتتقبل رغبته دون إكراه..

يتعبك أحياناً، ويحزنك أو يبهجك، ويمنحك الحب، يذكرك بالله دوماً؛ لأنك تقف عند لاحدود الإعجاز والدهشة، ولأنه بواسطتك الأمر الذي يجعلك حين تتأمله وتراقبه تدهش من نفسك!

يسلّيك ويمنحك مساحةً حرة مع نفسك فتواجهها بكل تناقضاتها وغرائبها، يوقفك كثيراً عند التفاصيل والأحداث البسيطة والعميقة والمميتة، يوقظك من سباتك أو من غفلتك لتخطّ سريعاً ما اتقد فيك من إلهام؛ تدركه قبل أن يحط في محطة أخرى أو يتلاشى في اللاشيء.

هذا (عُشبي.. مُنعشٌ.. حِرّيفٌ) فريدٌ حرٌّ لا يشبه إلا نفسه، نطافه أعجمية وعربية، وحمله ستة عشر شهراً، وفطامه في اليوم الذي ولد فيه!

شكر وعرفان

أشعر بالامتنان؛ فلولاهما ما كان مزاج (عُشبي.. مُنعشٌ.. حِرّيفٌ) سائغاً للشاربين؛ كانا معي خطوة بخطوة، وساعداني في تهذيبه وتشذيبه قبل أن يبصر النور.

الأستاذة عواطف العلوي، والدكتور طالب الرفاعي..

شكراً لكل من آمن بي، وألهمني وتاق لشيءٍ مني، واستبشر بي خيراً.

ربي حبيبي، شكراً لهذا السرنديب العجيب.

عهود هوساوي

29/ يونيو/ 2018